الفصل السادس

نماذج قيادية اسلامية

سبحان الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ..
لقد اهتدى الكاتب الى أن يكون مسك الختام لهذه المعالجة لموضوع الكتاب « كلكم راع .. » أن يورد أمثلة لنماذج قيادية اسلامية ، حتى تكون تطبيقا صادقا لما ناقشناه فى فصول هذا الكتاب ، ولتشهد بأن الاسلام سبق العلم الحديث منذ عدة قرون فى وضع الأسس السليمة للقيادة وطبقت تطبيقا صحيحا على مر العصور .
وبعون الله تعالى وتوفيقه ، استقر الرأى على أن نعرض النماذج القيادية الاسلامية الآتية :

أولا : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ثانيا : أبو بكر الصديق رضى الله عنه .
ثالثا : عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
رابعا : عثمان بن عفان رضى الله عنه .
خامسا : على بن أبى طالب كرم الله وجهه .
سادسا : عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

لتكون هذه النماذج نبراسا نهتدى به فى مجال القيادة الرشيدة الواعية ، التى جمعت بين أمور الدنيا والدين .

* * *

اولا : محمد رسول الله

اتفقت أحوال العالم اذن على انتظار رسالة ..
واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة ..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته من أحسن الوجوه .

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ، ثم لا يظهر الرسول .

وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح وفى البيئة الصالحة ، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة .

ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق ، وكان المعجزة التى تفوق المعجزات لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها ، مما يقبله العقل قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه .

فكان محمد مستكملا للصفات التى لا غنى عنها من انجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ .

كانت له فصاحة اللسان واللغة ..

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة ..

وكانت له قوة الايمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها ..

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول .. ولكنها هى التى عليها المدار فى تبليغ الرسالة ، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال[1] .

● **الفصاحة :**

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع الكلام .. فقد يكون الكلام فصيحا وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب .

---

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . (بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٧١) ، ص ٣٥ .

أما فصاحة محمد .. فقد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئة نطقه بكلامه ، وفى موضوع كلامه .. فكان أعرب العرب ، كما قال عليه السلام : « أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » .. فله من اللسان العربى أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة .. وهذه هى فصاحة اللسان .

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس .. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل .

أما محمد فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام لين فصل ، يحفظه من جلس اليه » .

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على ايقاعها فى أحسن مواقعها .. فهو صاحب نطق سليم فى منطق سليم .

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ، ويكون سليما فى كلامه سليما فى نطقه .. ثم لا يقول شيئا يستمع اليه السامع فى موضوعه .

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول الكريم فى فصاحته البالغة من شتى نواحيها .. فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات الا وهو دليل صادق على أنه قد أوتى حقا « جوامع الكلم » ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام .

● **الوسـامة والثقة :**

وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه الى كل من رآه ، وتجمعان اليه قلوب من عاشروه • وهى صفة لم يختلف فيها صـديق ولا عدو ، ولم ينقل عن أحـد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصـفة ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء •

وحسبك من حب الضـعفاء اياه أن فتى مسـتعبدا يفقـد أباه وأسرته ــ كزيد بن حارثة ــ ثم يظهر له أبوه بعـد طول الغيبـة ، فيؤثر البقاء مع محمـد على الذهاب مع أبيه •• وحسـبك من حب الأقوياء اياه أنه جمع على محبته أناسـا بينهم من التفاوت فى المزاج والخصـال ما بين أبى بكر وعمر وعثمان وخالد وأبى عبيـدة ، وهم جميعا من عظماء الرجـال •

ولكن الرجل قد يكون صبيحا دمثا محبوبا ، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم اياه نصيب كبير •• لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به ، واذا اتفقت الخصلتان حينـا فمن الجائز أن تفترقا حينـا آخر ، لأنهما فى عنصر الخصـال لا تتلازمان •

أما محمد فقد كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما يجتمعان ، وكان مشـهورا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه • وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه •

وامتلأ هو من العلم بمنزلته من ثقة القـوم ، فأحب أن يسـتعين بها على هـدايتهم وترغيبهم فى دعـوته ، فكان يسـألهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيـلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى » ؟ فيقولون : « نعم ، أنت عنـدنا غير متهم » •• الا أن الانسان ينفر مما يصدمه فى مألوفاته وموروثاته ، ولو صـدقه وقام لديه ألف برهان عليه • فلم يكن ما بالقوم أنهم لا يصـدقون محمدا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة ، وانما كان بهم أنهم ينفرون من التصـديق كما ينفر المرء من خبر صادق

يسوؤه فيمن يحب أو فيما يحب ، وهو مفتوح العينين ناظر الى صدق ما يلقى اليه .

● **الايمان والغيرة :**

من المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها ، وهذه الشمائل على ندرتها ، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج اليها الداعى أشد من حاجته الى الفصاحة والصباحة .. وهى ايمانه بدعوته وغيرته على نجاحها . فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان واشراقة الملامح والقسمات ، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الايمان بصواب ما يدعو اليه ، والغيرة عليه .

وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو مؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان .. وجاوره أناس أقل منه نبلا فى النفس ولطفا فى الحس ونفورا من الرجس ، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله ، ومن حاجتهم الى عبادة غير عبادة الأصنام ، وآداب غير آدابهم فى تلك الأيام . فاذا جاوزهم فى صدق وعيه وسداد سعيه فقد وافق المعهود فيه .

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه اياه الى القيام بأداء تلك الرسالة لم يهجم على هذا الايمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق ، وجزع حتى اطمأن . وخطر له فى فترة من الوحى أن الله قلاه وأعرض عنه ، ولم يأذن له فى دعوة الناس الى دينه . ثم تلقى الطمأنينة من وحى ربه ومن وحى قلبه .. فصدع بما أمر ، ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النحو الذى رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية ، مع ما بينه وبينهم من فارق فى الحاجة الى الاصلاح .

فما من عجب اذن أن يكون محمد صاحب دعوة .. وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التى بلغت .

وانما العجب ممن يغفلون عن هـذه الحقيقة أو يتغافلون عنها لهوى فى الأفئـدة ..

لقد نجحت دعوة الاسـلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لهـا الأحداث ، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصـفاته .. فلا حاجة بها الى خارقة ينكرها العقل أو الى علة عوجاء يلتوى بها ذوو الأهواء ، فهى أوضـح شيء فهمـا لمن أحب أن يفهم ، وهى أقوم شيء سـبيلا لمن اسـتقام .

● **عبقرية محمـد الادارية(١) :**

فى الاسلام أحكام كثيرة مما يدخل فى تصرف رجال الادارة كمـا نسـميهم اليوم .. وفيـه وصايا كثيرة عن المعاملات وسـائر شـئون المعيشـة الاجتماعية يقتدى بها المشرعون فى جميع العصور .. ولكنـا لا نريد بما نكتب عن النبى الكريم عليه السلام أن نسرد أحكام الفقـه ونبسـط وصـايا الدين ، فهى مشروحة فى مواطنها لمن شـاء الرجوع اليها .. وانما نريد أن نعرض لأعماله ووصـاياه من حيث هى ملكات شـخصية وسـلائق نفسـية ، تلازمه حيث كان مؤديا لرسـالة الدين ، أو مؤديا لسـائر أعمال الانسـان . وكذلك لا يعنينا مثلا أن تتكلم عن « الادارة » كأنها نصـوص المنشـورات واللوائح التى تدار بها الأعمال فى الدواوين .. انسـا نعنى « الملكة الادارية » من حيث هى أسـاس فى التفكير : من اعتمد عليـه اسـتطاع أن يقيم بنـاء الادارة كلها على أسس قويمة ، ثم يدع لغيره تفصيلات التنفيذ .

فليس فى وسـع رجل مطبـوع على الفوضى مسـتخف بالتبعة أن يؤسس ادارة نافعـة ، ولو كان فيما عـدا ذلك كبير العقل كبير الهمة .. أما السـليقة المطبوعة على انشـاء الادارة النافعـة فهى السـليقة التى تعرف النظام وتعرف التبعة وتعرف الاختصاص بالعمل ، فلا تسـنده الى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه .

---

(١) **المرجع السـابق** ، ص ٧٨ ــ ٨٢ .

وقد كانت هذه « السليقة » فى محمد عليه السلام على أتم ما يكون .. كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل الجماعى أو العمل الاجتماعى الذى يحتاج الى تدبير . ومن حديثه المأثور : « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » . ومن أعماله المأثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة اذا أصيب من تقدمه بما يقعده عن القيادة . وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطين وهما الكفاءة والحب ، فمن أحاديثه فى هذا المجال : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين » . وقال أيضا : « أيما رجل أم قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه » .

وكان الى عنايته باسناد الأمر الى المدير القادر عليه حريصا على تقرير التبعات فى الشئون ما كبر منها وما صغر ، على النهج الذى أوضحه صلوات الله عليه حيث قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمير راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

على أن الادارة العليا انما تتجلى فى تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع ، فليست الادارة كلها نصوصا وقواعد يجرى الحاكم فى تنفيذها مجرى الآلات والموازين التى تصرف الشئون على نسق واحد ، ولكنها فى كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك .

ذلك هو المجال الذى تمت فيه عبقرية محمد فى حلول التوفيق واتقاء الشرور على خير وجه . فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها الا أشار فيها بأعدل الآراء ، وأدناها الى السلم والارضاء ..

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر باقامة الحجر الأسود في مكانه ، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة ، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بايثار احدى القبائل على غيرها ولو جاء الايثار من طريق المصادفة والاقتراع ، فأشار محمد بالرأى الذى لا رأى غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول . فجاء بثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم فى طرف من أطرافه ، وكان من قسمته هو على غير خلاف من الناس أن يقيمه بيده حيث كان .

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة الى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله ، وهو يشفق أن يقدح فى نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة .. فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك ، وفصلت فيما لو فصل فيه انسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جزيرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها .

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسا من أهل مكة الضعيف ايمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الاسلام وثبتوا على الجهاد ، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه الى ارضائهم بالحجة التى لا تغلب من يدين بها ، بل تريه أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه المقنع والاقناع فى وقت واحد ، حيث قال عليه السلام : « أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .. » .

كلام مدير فيه الادارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين .. فهو مدير حين تكون الادارة تدبير أمور ، ومدير حين تكون الادارة تدبير شعور ، وهو كفيل ألا يلى مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق اليها الاختلال ، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة ، وبالاختصاص

وبالسماحة . وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلاف أو انحلال ، أو لخطل فى ادارة الأعمال .

● **عبقرية محمد العسكرية :**

سبق أن أوردنا فى الفصل السابق ـ الخاص بالقيادة العسكرية ـ جوانب من عبقرية محمد العسكرية ، ونضيف هنا جوانب أخرى للدلالة على هذه العبقرية .. فالاسلام لم ينجح لأنه دين قتال ، كما يردد أعداؤه ، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار .

ونريد هنا أن نقول ان محمدا كان ـ على اجتنابه العدوان ـ يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه ، وأنه لم يجتنب الهجوم والمبادرة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده ، ولكنه اجتنبه لأنه نظر الى الحرب نظرته الى ضرورة بغيضة يلجأ اليها ولا حيلة نه فى اجتنابها ، ويجتنبها حين تيسرت له الحيلة الناجحة . وفى مجال الحرب هناك حقائق واضحة عن الكروب والمعارك الاسلامية نبرزها فيما يلى ..

فالحقيقة الأولى ، هى أن حروب النبى عليه السلام كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم الا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد التيقن من نكث العهد والاصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش أو حروبه مع اليهود أو مع الروم .. ففى غزوة «تبوك» عاد الجيش الاسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة .

والحقيقة الثانية ، أن الاسلام انما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والاقناع .. ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سلطة » تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للاصغاء اليه .. لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى فى اخضاعها عن القوة ..

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الاسلامية ، وانما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف .. وكل حجتهم التى يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه .

وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الاسلامية ، فيمتنع القتال .

والحقيقة الثالثة ، أن الاسلام لم يحتكم الى السيف قط الا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الانسان على تحكيم السيف فيها .. فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع ان لم تحتكم الى السلاح ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم ، حيث جاء فيه : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** ﴾ .
(البقرة : ١٩٣)

والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على آخرين من أبنائها ، بماذا تفض الخلاف بينهم اذا لم تفضه بقوة السلطان ؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيه : ﴿ **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى امر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين** ﴾ .
(الحجرات : ٩)

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر المحاولات ، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح .. ثم يأتى الصلح والتوفيق أو يأتى التفاهم بالرضى والاختيار .

والحقيقة الرابعة ، أن الاسلام شرع الجهاد ، وأن النبى عليه أفضل الصلاة والسلام قال : «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» •
(رواه أبو داود)

وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العرب ، ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح • الا أن هذه الفتوح تأخرت فى الزمن ، ولم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة للاسلام ، فلا يمكن أن يقال انها كانت وسيلة الاسلام للظهور ، فقد ظهر الاسلام قبلها وتمكن فى أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله •• هذا الى أن الاسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب •

وصفوة القول أن الاسلام لم يوجب القتال الا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق ، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك ، وأن الاسلام عقيدة ونظام ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام فى أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه •

لم يكن الاسلام اذن دين قتال ، ولم يكن النبى رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب ، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير اذا وجبت الحرب ودعته اليها المصلحة اللازمة •• يعلم من فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمران ، ويصيب فى اختيار وقته وتحريك جيشه ووضع خططه اصابة التوفيق واصابة الحساب واصابة الاستشارة • وقد يكون الأخذ بالمشورة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآيات الابتكار والانشاء ، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام •

ونختار أبرع القادة المحدثين وهو « نابليون بونابرت » على أسلوب الحركة الذى كان هو الأسلوب الغالب فى العصور الماضية ، والذى

استخدم فى الحروب العالمية ، أنه لا يزال الخطوة الأخيرة فى جميع الحروب ، على الرغم من تطور أساليب وأسلحة القتال .. لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق فى خطط النبى العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم[1] .

١ ــ فنابليون كان يوجه همه الأول الى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع ، فلم يكن يعنيه ضرب المدن أو اقتحام المواقع .. وانما كانت عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذى يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة مفاجئة أكثر الأحيان ، وهو على يقين أن الفوز فى هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التى يلجأ اليها معظم القواد .. وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور . أن يختار الموقع الملائم له ، وأن يختار الفرصة الملائمة ، وأن يعاجل العدو قبل اتمام استعداده .

وكان النبى عليه السلام أسبق الى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها .. فكان لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال ، بل ربما وصل اليه الخبر ، كما حدث فى غزوة تبوك ، والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة .. فلا يثنيه ذلك عن الخطة التى تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حث المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ، ولا يبالى بما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدى فلم يحدث ما توقعوه .

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها .. ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك الأعداء ، واضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة فى أيدى المهاجمين ، الا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه ، كما حدث فى غزوة الخندق .

٢ ــ وكان نابليون يقول ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية

---

(١) **المرجع السابق** ، ص ٥٠ ــ ٥٣

كنسبة ثلاثة الى واحدة .. والنبى عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية ، التى هى فى الحقيقة قوة الايمان . وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبة خمسة الى واحد فى بعض المعارك .. ومعجزة الايمان هذا أعظم بكثير من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة .. فالنبى عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة .. فلا يقال هنا ان الفضل لقوم على قوم فى المزايا الجسدية أو النفسية كما يمكن أن يقال هذا فى جيش نابليون ، وكل فضل هنا هو فضل العقيدة والايمان .

٣ ــ وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة الاقتصادية للعدو بقدر ما يستطيع .. فكان يعمد الى منع سفن الانجليز وتجارتهم أن تصل الى القارة الأوروبية .

وهكذا كان النبى عليه السلام يحارب قريشا فى تجارتها ، ويبعث السرايا فى أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها .

وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه الى الجيش ، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة .

ونرجع الى غزوات النبى عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة ، الا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التى عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها فى الغدر والوقيعة ، كما حدث فى حصار « بنى قريظة » و « بنى قينقاع » ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم فى الميدان المختار بغير اختلاف كبير .

٥ ــ وكان نابليون معتدا برأيه فى الفنون العسكرية ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه فى مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء القتال .

ومحمد عليه السلام كان ــ على رجاحة رأيه ــ يستشير صحبه فى خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول .. ومن

ذلك ما صنعه « ببدر » ، حين أشـار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر ثم بتغوير الأبار وبناء حوض للشرب لا يصل اليه الأعداء . وقيل فى روايات كثيرة انه عمل بمشـورة سلمان الفارسى فى حفر الخنـدق عند المنفذ الذى يخشى أن يهجم منه المشركون على المدينة ، فحفر الخندق وعمل النبى بيديه الكريمتين فى حفره .

٦ ــ ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليـون .. وكانت فراسـة النبى عليه السـلام فى ذلك مضرب الأمثال .. فلما رأى أصحابه يضربون العبدين التقيين من ماء « بدر » ، لأنهما يذكران قريشـا ولا يذكران أبا سـفيان ، علم بفطنته الصـادقة أنهما يقولان الحـق ولا يقصـدان المراوغة ، وسـأل عن عدد القـوم فلما لم يعرفا سـأل عن عـدد الجزور التى ينحرونها كل يوم ، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذى يحتاج اليه . وكان صلوات الله عليـه انما يعول فى اسـتطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بأوديته ودروبه ، ويعقد اجتماعا قبل أن يبدأ القتال فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع .

٧ ــ اشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام ، كان يقول انه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام.

والنبى عليه السلام كان أعرف الناس بتأثير الدعوة فى كسب المعارك وتغليب المقاصـد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يشهرون به وبالاسلام أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون فى هجوه وهجو دينه ، فيرسـل اليهم من يحاربهم أو يتكفل له بالخلاص منهم .

ويمكن القول ببساطة ان محمدا عليه السلام « قائد بغير نظير » .. فعندما تنعقد المقارنة بين المعـارك القديمة والمعارك العصرية ينبغى أن تنظر الى « فكرة القـائد » قبـل أن تنظر الى ظواهر المعـارك أو الى أشكالها وأحجامها ، لأننا اذا نظرنا الى الظواهر فلا معنى اذن للمقارنة على الاطلاق .. اذ من المقطوع به أن مئـات الآلاف حين يجتمعون فى

مكان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وأن حربا تدار باستخدام وسائل الاتصال الحديثة أعجب من حرب تدار بالفم والاشارة ، وأن نقل الأفراد والمعدات بوسائل النقل الحديثة أبرع من نقلها على ظهور الخيل والابل ، وأن القنبلة والمدفع أمضى من السيف وأسرع من السيف والسهم . فلا معنى اذن لمقارنة بالظواهر والامكانات تنتهى الى نتيجة واحدة .. هى استضخام الحرب الحديثة والنظر الى القيادة الغابرة كأنها شيء صغير الى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة فى العدد والعتاد .

لكننا اذا نظرنا الى « فكرة القائد » ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون .. بينهم الراكب والراجل وغير المنظور ، ومنهم من يستخدمون أحدث الآلات والمخترعات .

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدى قائد من قوى الرأى والسلاح والكلام والايمان .. وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تأتى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال .. فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضرورة الذى لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول الذى تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية ، ولا يلجأ الى هذه القيادة الا حين توجبها رسالة الهداية .

ويزيد من هذه الشهادة قيمة وعظما أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هياب . فمحمد عليه السلام كان فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان على ، كرم الله وجهه ، أشجع الفرسان يقول : « كنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم .. فما يكون أحد أقرب منه الى العدو » .

ولولا ثباته في وقعة « حنين » ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين ، لحقت الهزيمة على المسلمين .

وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار ، أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة لم يدعه اليه شيء .. لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرين داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره .

ومشاركته فى الوقعات الأخرى هى مشاركة القائد الذى لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى ، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود .

ومن خصائص العظمة النبوية فى محمد عليه الصلاة والسلام أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه .. فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال ، وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة تضربه بالقتل واهدار الدماء البشرية فى غير جريرة . وقد تنزه محمد عن هذا وذاك ..

فاذا كانت شجاعته عليه السلام تنفى الشبهة فى رقة الضعف والخوف المعيب ، فحياته كلها منذ طفولته الباكرة تنفى الشبهة فى القسوة والجفاء .. اذ كان فى كل صلة من صلاته بأهله أو برضعاته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه مثلا للرحمة التى عز نظيرها فى غيره من البشر .

ان عبقرية محمد فى قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب ، وترضاها المروءة ، وترضاها شريعة الله والناس ، وترضاها الحضارة فى أحدث عصورها ، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء .

* * *

ثانيا : ابو بكر الصـــديق

لقد اختار الله رســوله ، وهو محمد بن عبد الله ، عليه الصــلاة والسلام ، ونزل الوحى .. وبدأت رحلة القرآن مسيرتها المباركة .

هــذا هو الموكب الجليل الذى وكلت اليه مهمة تغيير البشرية ، وتجديد ضميرها ..

محمد .. والوحى .. والقرآن ..
ولكن بدا كأنما الموكب واقف يترقب .
أنه ينتظــر رجلا له فى الموكب مكان شــاغر ، لن يتحرك الموكب حتى يجىء ..

وهــذا الرجل ليس نبيا .. ومع هــذا فهو الذى ســيتم دور النبى ..

وفجأة .. هلت البشرى .. وأقبل الرجل .. وجاء أبو بكر ..
جاء الانســان الذى سيقول للنبى دائما وفى غير تردد :
ــ صدقت .. صدقت ..
جاء الرجل الذى سيزامل النبى فى هجرته ، وهو يعلم علم اليقين أن قريشا ستجند لمطاردة النبى المهاجر كل بأسها وحقدها وكيدها ..

جاء الرجل الذى سيرد المسلمين ــ جميع المسلمين ــ الى صوابهم يوم ينعى الناعى اليهم رســولهم ..

جاء الرجل الذى لولاه أيام الردة لواجه الاســلام محنة فنــائه واختفائه ..

وبعبارة واحــدة :

جاء الرجل الذى كان لا بد أن يجىء ليكون مع الرسول ، الأداة التى اصطفاها الله ليغير بها العالم ، ويطهر الدنيا ، ويقوم الحياة ..

فهذا هو الدور الحقيقى لأبى بكر كما يتراءى لنا[1] .

هـذا الرجل العظيم المتفوق .
كيف عاش حياته كحاكم ، ومارس دوره كخليفة .. ؟
هـذا الذى ولد سـيدا ، وعاش سـيدا ..
هـذا الذى لم تفلت منه مزية ، ولم تغب عنه فضيلة ..

هـذا الذى أنقذ الاسـلام من خطر محقق ، ورد اليه حيـاته وثباته ..

هـذا الذى بدأت أبراج كسرى وقيصر تتسـاقط تحت قدميـه والعالم القديم كله يتداعى بين يديه ..

هل غيرت الخلافة من جوهر نفسه أو من أسلوب حياته .. ؟
هل نسى تواضعه وفضائله فى زحمة انتصاراته .. ؟
هل عاش خليفة ـ فوق ـ الناس .. ؟
أم ظل واحدا ـ بين ـ الناس .. ؟
لنقف فى رحابه لنرى ..
ولنبدأ باللحظات الأولى من خلافته .

ها هو ذا ينقل خطاه فى حياء ووجل ، ميمما وجهه شطر منبر رسول الله .. هـذا المنبر الذى طالمـا نادى النبى الكريم المسلمين من فوقه ، ودعاهم الى الهدى ودين الحق ..

ها هو ذا أبو بكر يصـعده لأول مرة ، بعد أن غاب عنه ربانه . وأنه ليصـعد درجتين ثم يجلس ، فهو لا يبيح لنفسه أن يصـعد كل الدرج وكل المرتقى .. لا يبيح لنفسه أن يجلس حيث كان الرسـول يجلس ..

---

(١) خالد محمد خالد : **وجاء أبو بكر** . (القاهرة : دار المعارف ، د.ت) ص ١١ ـ ١٣

وها هو ذا يستقبل الجمع الحاشد يتلو على الناس موثقه وعهده :

« أيها الناس ..

« انى وليت عليكم ، ولست بخيركم ..

« ان أحسنت فأعينونى ..

« وان أسأت فقومونى ..

« ألا ان الضعيف فيكم قوى عندى ، حتى آخذ الحق له ..

« ألا وان القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ..

« أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ..

« فاذا عصيت فلا طاعة لى عليكم » ..

الا انه على كثرة ما وعى التاريخ من مواثيق وخطب استهل بها الحكام عهود حكمهم ، لا نجد ، ولن نجد قط مثل هذه الحكمة ، وهذا القسطاس ..

لقد كان أبو بكر بهذه الكلمات المعجزات ، يضع فى اطار من الذمة والصدق مسئوليات الحاكم الأمين ، ويكشف عن جوهر كل حكومة صالحة[1] .

● **صفاته :**

ان صفاته الخلقية قد اتفقت فيها أقوال واصفيه ، ودلائل أعماله فى الجاهلية والاسلام .. فكان أليفا ودودا حسن المعاشرة ، وكان مطبوعا على أفضل الصفات التى تتألف له الناس فيألفونه ، ومنها التواضع ولين الجانب . فلم يتعال على أحد قط فى جاهليته أو فى اسلامه ، وكان فى خلافته أظهر تواضعا منه قبل ولايته الخلافة .. فاذا مدحه مادح قال : اللهم أنت أعلم منى بنفسى ، واذا سقط منه خطام ناقته وهو راكب نزل منها ليأخذه ولم يأمر أحدا بمناولته اياه . وبلغ من بغضه الخيلاء

---

(١) **المرجع السابق** ، ص ١٠١ ــ ١٠٢

أنه كان يبغضها حتى حيث يغتفرها الناس من ربات الحجال . فدخل يوما على السيدة عائشة رضى الله عنها وهى تمشى وتنظر الى ذيل ثيابها فقال : يا عائشة .. أما تعلمين أن الله لا ينظر اليك الآن ؟ قالت : ومم ذاك؟ قال : أما علمت أن العبد اذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فلما نزعت تلك الزينة التى أعجبتها فتصدقت بها قال : عسى ذلك يكفر عنك .

ولم يكن تآلفه الناس محض مجاملة باللسان مما يستسهله معظم المشهورين بالتودد والمجاملة ، ولكنها كانت ألفة النجدة والكرم والسخاء ، فكان ودودا كريما لا يضن بماله وجاهه فى سبيل الكرم والسخاء .

ومع هذه المودة والألفة كانت فيه حدة يغالبها ولا يستعصى عليه أن يكبح جمحتها ، ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس اليه . فقال فى خطبة من أوائل خطبه بعد مبايعته : « .. اعلموا أن لى شيطانا يعترينى ، فاذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى .. » .

وهو سريع التأثر الى الرحمة والرفق فى جملة أحواله ، يميل الى الحزن والتأسى ويعطف على الحزين ، أو كان كما وصفته عائشة رضى الله عنها : « غزير الدمعة وقيذ الجوانح (محزون القلب) شجى النشيج » .

وكان فى جاهليته واسلامه وقورا جميل السمت يغار على مروءته ويتجنب ما يريب . فلم يشرب الخمر قط لأنها مخلة بوقار مثله ، وسئل لم كان يتجنبها فى الجاهلية ، فقال : « كنت أصون عرضى وأحفظ مروءتى ، فان من شرب الخمر كان مضيعا فى عقله ومروءته » .

وكان لمروءته يتحاشى السقط من الكلام ، فلا يتكلم الا أن يدعوه داع الى قولة خير فيقولها اذن ويصدق فى مقاله .

وقد اشتهر بالصدق فى الجاهلية والاسلام ، فكان « ضامن » قريش المقبول الضمان . لا يعد أحدا الا وفى وصدق الدائن والمدين . ووكلت اليه الديات والمغارم فلم يكن يحمل شيئا منها الا اطمأن اليه الناس ، فان احتملها أحد غيره خذلوه ولم يصدقوه .

وكانت شجاعته كفاءة صدقه ووفائه بوعده .. سواء منها شجاعة الرأى أو شجاعة القتال . فلما أسلم لم يبال أن يعلن اسلامه وأن يجهر بصلاته ودعائه . ولما وجب القتال كان هو أقرب المقاتلين الى رسول الله فى كل غزوة ، وانهزم كثير من الشجعان فى بعض الملاحم الشديدة ، ولم تذكر له هزيمة قط فى ساعة من ساعات الشدة ، ولا ثبت نفر قط حيث يصعب الثبات الا كان هو بين أول الثابتين . ولم تكن وقعة قط أشد على المسلمين من وقعتى « أحد » و « حنين » .. ولى فيهما من ولى واستشهد من استشهد .. ففى وقعة أحد — أشد هاتين الوقعتين — كان أبو بكر فى طليعة الثابتين ، ونظر الى حلقة من درع قد نشبت فى جبين صديقه ونبيه فشغله أن يصاب هذا المصاب ، وانكب عليها لينزعها ، لولا أن أقسم عليه أبو عبيدة ليسبقنه هو الى نزعها ، فجذبها بثنيته جذبا رقيقا حتى نزعها .

وعلى هذا الحظ الوافر من المزايا الخلقية ، كان له قسط محمود من المزايا العقلية التى يمتاز بها ذوو الأقدار من أهل زمانه ، فقيل فيه وفى صاحبه أبى عبيدة : « داهيتا قريش » . وأثر عنه أنه كان أسرع الناس الى الفطنة لما يوحى به النبى عليه الصلاة والسلام بالتلميح دون التصريح . ومما جاء فى الحديث النبوى الشريف عن علمه وفطنته أنه عليه السلام قال :

« كأنى أعطيت عسا (قدحا كبيرا) مملوءا لبنا فشربت منه حتى امتلأت ، فرأيتها تجرى فى عروقى بين الجلد واللحم ، ففضلت منها فضلة فأعطيتها أبا بكر » . قالوا : يا رسول الله ! هذا علم أعطاكه الله ، حتى اذا امتلأت فضلت فضلة أعطيتها أبا بكر . قال صلى الله عليه وسلم : « قد أصبتم »[1] .

وكان لأبى بكر حظ وافر من الملكة الروحية الى جانب ما عنده من هذه الملكة الذهنية ، وتلك الملكة الخلقية ، ونعنى بالملكة

---

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ١٩٨

ما نسميه اليوم « يقظة الضمير » .. ومناط الضمير أن يرعى الانسان حق غيره ، وأن يحسن ولا يسيء . وهى خصلة كانت ملحوظة فى أبى بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذى يأمر بالخير وينهى عن الشر ، ويدعو الى اتباع الحق واجتناب الباطل . فلما جاء هـذا الدين بنى منه على أسـاس قديم ، وبلغت به نفسه قصارى ما تبلغه نفس طيبـة من رعاية حقوق الناس ، ومن كلف بالخيرات وسخط على الشرور .

لقد وصف لنا الصديق بأوصاف نستطيع أن نعيدها اليوم بما ألفناه من أساليب العصر فنراها على وفاق لحقـائق تلك الأوصاف ودلالتها ، وذلك أبين البينات عن صدق ما وصفوه به فى الجاهلية والاسلام .

فمن جملة الملامح والسـمات التى وصف بها يتبين أنه كان من أصـحاب المزاج العصبى الناشئين فى وراثة كريمة ، فهو عصبى كريم النزعات والطوايا .. ولا يندر فى أصحاب هـذا المزاج أن يتميزوا بحدة الذكاء وسرعة التأثر والطموح الى المثل العليا والحماسة لمـا يعتقدونه ، والتعلق بما يؤمنون به ويصدقونه ، والتقدم فى العقائد والدعوات .

ولم يكن أبو بكر صاحب « الشخصية المستبدة الباطشة » التى تروع الناظر اليها لأول وهلة . ولم تكن سـيادة بيته سـيادة جبارين يسلكون الناس بالبأس والسـطوة .. فسبيله اذن أن يعتصم بصدقه ومروءته ليحفظ بهما كرامة الشرف الذى ينتمى اليه ، وأن يستزيد من ذلك الصدق وتلك المروءة بما يزيدهما من التمكين ويملى لهما فى الثبات والرسـوخ ، وأن يتجنب فلتات الطبع واللسـان وينتزه عن كل مخل بالوقار .

ولقد عاش أبو بكر ما عاش أليفا مؤلفا لقومه ، محبا محبوبا فيمن حوله ، رحيما بالغرباء فضلا عن الأقربين . ولكن هـذا الرجل الرحيم الأليف نهض الى مبارزة ابنه ودعا عليه بالهلاك حين شـهد الحرب مع المشركين ، ورأى البر به ــ غاية البر ــ أن ينهض هو لمبارزته ولا يدعه لأحد غيره من المسلمين .

● مفتاح شخصيته :

لقد كان أبو بكر رجلا كريما أليفا من أهل الخير والمودة ، فلا جرم كان الاعجاب بالبطولة طبعا متأصلا فيه ، مقرونا بكل ما فى الاعجاب من حب وثقة وايمان ، ولا جرم كان هذا الأعجاب « مفتاحا لشخصيته » مفسرا لكل ما يلتبس من أعماله ، مميزا لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات •

ان هاديه فيما اهتدى اليه هو اعجابه بالبطولة •• وهو اعجابه بالبطولة التى تستحق الاعجاب ، لأن الأعجاب طبقات تتفاوت ، كما أن البطولة ذاتها طبقات تتفاوت • وقد كان هو من طبقات هذا الأعجاب فى أرفع مكان •• فانه لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العتاة المتجبرين ، ولم يعجب ببطل تروعه منه مظاهر الزخرف والخيلاء ، ولم يعجب ببطل تروعه منه جلبة الصيت الفارغ والمواكب الجوفاء ، ولم يعجب ببطل يزدهى بالثروة أو بالعصبة أولى القوة •

انما البطولة التى أعجب بها أبو بكر هى البطولة التى ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفس الانسانية : هى بطولة الحق ، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة ، وهى فوق هذا ، بطولة الفداء ـ يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء •

تلك هى بطولة محمد •• وذلك هو اعجاب الصديق • خير لبنى آدم أن يبقى لهم هذا الاعجاب من أن يزول ويبقى بعده كل شىء ، أى شىء •

كان أبو بكر يأخذ النفس العظيمة مأخذا واحدا ويصدق الخبر فيها جملة واحدة ، ولا يجزئها قطعة قطعة وخبرا خبرا ، فيبطلها كلها بخبر من أخبارها وجزء من أجزائها •

وأبو بكر ينظر الى المسألة فى أساسها فيطمئن اليها عند ذلك الأساس ويبنى عليه كل ما فوقه من الاضافات • والمسألة فى أساسها

هنا هى مسألة الصلاح والأخلاق والفساد ، ومسألة التوحيد وعبادة الأصنام ، ومسألة المقابلة بين الأخلاق الجاهلية والأخلاق التى تأمر بها الدعوة المحمدية ، ومسألة الثقة بالمقاصد العظيمة والمساعى الكريمة ، أو الثقة بالجهل الشائع والعادات الذميمة .

فاذا كان أبو بكر قد نظر الى هذا الأساس فهو المصيب .

ولا حاجة بنا هنا الى الغاء البراهين العلمية أو البراهين المنطقية ، وانما حاجتنا كلها ألا نلغى البراهين النفسانية ، لأنها قد تتناول العظائم الانسانية فى عمومها فينطوى فيها العلم والمنطق معا ، وتأتى الأيام بعد ذلك بتفصيل هذا الاجمال وتوضيح هذا الابهام .

ومرجع « البرهان النفسانى » الصادق فى تقدير العظمة أنه سبيل الفداء فى طريق النماء .. بهذا البرهان النفسانى واجه أبو بكر مسألة الدعوة المحمدية من حيث تنبغى مواجهتها ، ونظر اليها من جانبها الأصيل الذى تنحصر فيه النظرة الأولى : أمحمد امام خليق بالاتباع ؟ أهو بطل جدير بالاعجاب ؟ ان كان كذلك فهو معجب به متبع اياه ، وان لم يكنه فلا اعجاب ولا اتباع .... وكل ما وراء ذلك فضول وانحراف عن الجانب الأصيل ..

ومحمد بطل جدير باعجابه ، وامام خليق باتباعه ، فامتلأ به اعجابا ولازمه اتباعا ، وعوده أن المجد تكليف وجهد ، وأن الحق صبر وجهاد ، فكانت سنته فيهما أن يحمل المغارم وأن يأخذ بيد المهيض ، وأن يجور على نفسه وفاء بحق غيره ، فلم تطرقه الدعوة الاسلامية من باب غريب ، ولم يصادفه الجهاد للدين على غير تأهيب وتدريب .. بل زاده يقينا من طبعه واستواء على نهجه ، وجعله فى صدر هذه الدعوة مثل الاعجاب والايمان ، وأبرزه للأجيال عنوانا « للشخصية » التى يبلغ بها الولاء للبطولة ذروة مجدها وغاية تمامها ، ويستخرج منها أحسن مزاياها ، ويرتقى بها الى سمائها ، فهو هو أبو بكر فى تصديقه وولائه .

فهذا هو الصديق .. برهانه فى تصديق الغيب كبرهانه فى تصديق الشهادة ، لأن المرجع فيه الى شخص القائل لا الى الشىء الذى يقال .

فلما ارتد بعض المسلمين من حيث الاسراء بالنبى الكريم الى بيت المقدس قال أبو بكر قولته تلك : « انى آمنت به فى أمر السماء فلم لا أومن به فيما دون ذلك » .

ولما تشاور المسلمون فى صلح الحديبية رضى من رضى وأبى من أبى ، وظهر هنا منطقان متقابلان : منطق أبى بكر يقول : « انى أشهد أنه رسول الله فلم لا أتبعه فيما ارتضاه ؟ » .

ومن أصالة الاعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلا فى أدب الملازمة وقدوة فى أصول المصالحة ، وكان بفطرته خبيرا بالمراسم التى نسميها اليوم « بالبروتوكول » لأن أدبه فى توقير العظمة أدب الطبع الذى يهتدى من نفسه بدليل ..

انظر اليه وهو ينادى ابنته عائشة : يا أم المؤمنين !

وأنه كان اذا قدم على الرسول وفود القبائل علمهم كيف يسلمون وكيف يتكلمون بين يدى الرسول عليه السلام .

وكان عليه السلام يوما فى المسجد قد أطاف به أصحابه ، اذ أقبل على بن أبى طالب فوقف فسلم ثم نظر مجلسا . والتفت عليه السلام يرى أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر على يمينه فأسرع فتزحزح عن مجلسه وهو يقول : هنا يا أبا الحسن . فبدا السرور فى وجه النبى ، وقال : « يا أبا بكر . انما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل » .

وهو فى كل هذا المعجب المؤدب بأدب المصاحبة الخبير بمراسم المعاملة ، الذى يدرى بوحى نفسه كيف يكون التعظيم ، وكيف يكون السلوك ، وكيف تصان حقوق المراتب والدرجات .

وكأنما خلق أمينا للسر ، فما تعوزه صفة واحدة من صفات الأمناء للعظماء الذين يعجبون بهم ويغارون عليهم .. ومنها هذا الأدب ، ومنها قلة الكلام ، ومنها الكتمان عنهم فى خاصة شئونهم . وكان أبو بكر فى كتمانه عن النبى يتصدى للملام ولا يبوح بكلام .

تلك نفس ملكتها شمائل الوقار والتوقير ، وامتزجت بها سليقة الاعجاب والتعظيم ، حتى فاضت جوارحها ، وسرت مرتجلة الى جميع حالاتها ، فهى هنالك تستشفها فى مواطن الضمير وتلمسها فيما ظهر من الأعمال والمعاملات ، وتتلقاها من خليجات الذهن وبوادر اللسان ، وهى هنالك مفتاح الشخصية كلها تنفذ بنا الى خفاياها ، وتفتح لنا ما استغلق من أسرارها ، وتميز لنا بين خصائصها وخصائص الأنفس التى تناظرها فى المقام وتخالفها فى المزاج والترتيب[1] .

● **الصديق والدولة الاسلامية :**

ان الدولة الاسلامية تأسست فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، لأنه وطد العقيدة وسير البعوث .. فشرع السنة الصالحة فى توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه فى حرب الردة ، وشرع السنة فى تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على خلفاء الاسلام فى هذين العملين الجليلين .

ويكفى أن نذكر أن الذين أسلموا على يديه من عظماء القوم وضعفائهم على السواء . فقد كان لاسلامه أثر بالغ بين السادة ، كما كان له أثر بالغ بين العبيد والأتباع . وما هو الا أن علم الوجوه والعلية من فضلاء قريش أن أبا بكر رضى بالاسلام دينا حتى كان القدوة به حجة عندهم أقوى من حجة البيان والاقناع .. ان الدين الذى يرتضيه رجل كأبى بكر فى مروءته وصلاحه وشرفه واستغنائه واستقامة قصده وسلامة ضميره لدين جدير بالاستماع اليه والنظر فى دعوته ، وان النظر فى دعوته فيما بينها وبين العقائد الجاهلية من البون الشاسع لكاف وحده لكسب القلوب وتحويل الأذهان ، ولا سيما عند من خلا من الغرض فى دوام العقائد الجاهلية واحباط الدعوة الجديدة أو كل دعوة كائنا ما كان حظها من الخير والفلاح .

فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة فى الاسلام

---

(١) **المرجع السابق** ، ص ٢١٥ ـ ٢١٨

.. أسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهم . ومنهم من أسلم وهو يفع أو شاب كسعد والزبير ، فكانا فتوة للاسلام حين جد الجد واشتدت سواعده بسواعد فتيانه الأبرار .

واشترى نفرا من العبيد المرهقين .. منهم بلال بن رباح مؤذن الرسول عليه السلام ، ومضى فى شراء العبيد والاماء بما يطلبه سادتهم من ثمن يغالون فيه ليعجزوه ويدخلوا الندم على نفسه ، وهو لا يبالى ما يبذل من ماله وجهده لينقذ أولئك المساكين من أيدى المشركين ويريحهم من قسوة السادة المتجبرين .. فكان كسبه لقلوب الضعفاء أربح للاسلام وأجدر ورحمته من كسبه العلية من القوم ، وأبلغ فى التدين والفضيلة من اقناع بنافذ الحجة وابلاغ بصادق الكلام .

ولم يزل فى كل عمل من أعماله منذ أسلم الى أن تولى الخلافة مؤسسا لهذا البناء الشامخ الذى كان هو أول من قام عليه بعد بانيه .. فالدعوة الصريحة الى الاسلام فى المسجد بمسمع من قريش ، والهجرة مع النبى من داره ، وبذل المال فى البعوث وغير البعوث ، ومحاربته قريشا بعلمه واطلاعه على الأنساب كما حاربهم بماله وسلاحه ومشورته ورأيه .. بل كل ما عمل منذ أسلم الى أن تولى الخلافة ، فهو فى جملته ركن من أركان الدولة الاسلامية يجعله بالحق مؤسسا لها مشاركا فى بنائها ، بسلطان العقيدة قبل سلطان الحكومة والكلمة المسموعة .

ثم كانت البيعة بالخلافة ..

وكانت بعثة أسامة بن زيد ، وكانت حروب الردة ، وكانت بعوث العراق والشام .. فقام على هذه المآثر الثلاث التى لا يقضى حقها من الاكبار كل ما قام بعد ذلك من بناء .

وما بعثة أسامة ؟ .. كان قوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله .

وكانت الطاعة ــ جد الطاعة ــ مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر فى ذلك الحين •

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر ، فالطاعة ــ بل الطاعة الصارمة ــ هى العصمة التى ليس من ورائها اعتصام •• وقد كان التمرد هو الخطر الأول فى ذلك الحين ولا مراء ••

كان النفاق يطلع رأسه فى مكة والمدينة ، وكانت القبائل البادية تتسابق الى الردة فى أنحاء الجزيرة العربية ، وكان جند أسامة نفسه يود لو استبدل به أميرا غيره ، وكان أسامة أول من يشك فى طاعة القوم اياه ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه •

تمرد ، أو نذير تمرد ، فى كل مكان •

وطاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد ، أو لا سبيل الى واجب بعد ذلك يطاع •• طاعة أو لا شىء •

وهنا تسعف الصديق طبيعة هى أعمق الطبائع فيه ، أو هى العبقرية الصديقية فى أوانها ، وعلى أحسن حال تكون •• هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب • وهنا يقول وقد خوفه الخطر على المدينة :

« والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ! ولو أن الطير تخطفتنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين ، لأجهزن جيش أسامة ! » •

كلمة لو قالها غير أبى بكر لكانت كبيرة ، ولكن الذى يقولها أبو بكر وبنته أعز أمهات المؤمنين •

ومن المهاجرين والأنصار من كان يرى الرأى فى بقاء البعثة بالمدينة بعد موت النبى عليه السلام •

ومنهم من كان يرى أن يتقدم للقيادة من هو أسن منه وأخبر بفنون القتال ، ومنهم عمر بن الخطاب •

أما أبو بكر فقد رأى العصمة ـ حق العصمة ـ فى رأى واحد لا رأى قبله ولا بعد ، وهو الطاعة فى غير لى ولا هوادة ولا ابطاء . ولو لم يكن التمرد هو الآفة المحذورة فى تلك الآونة لقد كان غير الرأى أصوب ، ولكنه كان آفتها التى لا آفة مثلها ، ثم لا خطر ان سلمت الدولة من شرها .. فلتكن الطاعة اذن هى الصواب وهى الملاذ .

وقد ضرب المثل فى الطاعة التى أرادها .. فشيع البعثة وهو ماش على قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره . فقال أسامة : يا خليفة رسول الله . والله لتركبن أو لأنزلن . فقال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة .

ثم استأذن أسامة قائلا : ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر باذنه .. باذن القائد الذى هو فى مقام الطاعة هناك ، حتى على الخليفة وعلى أكبر الصحابة من بعده .

ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولا تقصرن فى شىء من أمر رسول الله .

ولقد أدرك أناس فى عصر أبى بكر صواب الرأى فى انفاذ تلك البعثة بعد انفاذها وعودتها . فشاع فى الجزيرة العربية خبرها ، وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد الا تخوفوا وسكتوا ، وقالوا فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء[1] .

وقد تكرر هذا الدرس فى أوسع نطاق لأنه نطاق الدولة الاسلامية كلها فى ذلك الحين ، وجاءت حروب الردة التى هى مفخرة أبى بكر الكبرى ، أو هى مفخرته الخاصة التى انفرد بها فى تاريخ الدعوة الاسلامية بغير شريك . فكانت تبرزه على حقيقته التى لا مماراة فيها ، خلافا لأعمال أخرى قد تكون فيها هذه الحقيقة موضع التباس أو اختلاف .

---

(١) **المرجع السابق** ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٩

ففي حروب الردة كان أبو بكر رضي الله عنه هو أبو بكر على سوائه وجلائه ، ولم يكن موقفه فيها غريبا كما يسبق الى الذهن للوهلة الأولى حيثما يخطر للذهن أنه الرجل الوديع الرقيق ، وذلك الموقف أولى المواقف بالصلابة الصارمة والبأس الشديد •

غضب الصديق رضي الله عنه في حروب الردة غضبته التي لا بد منها ، والا فما هو بغاضب •

أثارته ردة المرتدين لأنها مسته في كل ما يثيره ، وأصابته في كل ما يعزه ويغار عليه •• فهنالك الصديق المحب لصديقه ، والمعجب الغيور على ذكرى بطله ، يثيره أن يغدر الغادرون لعهد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل ، ولما تمض له في قبره أيام أو أسابيع •

هنالك المسلم « الصديق » الذي آمن ببشارة النصر ولو كره الكافرون ، كما آمن من قبل بانتصار الروم على الفرس بعد بشارة القرآن فخاطر على ذلك النصر بالمال والميثاق ، ولم يخامره الشك لحظة أنه الرابح لا محالة في ذلك الخطار • وكذلك غضب في حرب الردة غضبة الواثق من الحق ، الواثق من الغلبة ، الواثق من العاقبة ، لأنه سمع البشارة السماوية لينصرن الله الاسلام على الدين كله ، فاذا حارب في سبيل الاسلام فهو لا محالة على حق وهو لا محالة منصور •

وهنالك الرجل « الدقيق التكوين » يقابل بالاستخفاف في أول خلافته وقد راض نفسه طوال حياته على المروءة والكرامة والوقار ، أنفة من الاستخفاف وكراهة للصغر والاستصغار ، فاذا بهم يستقبلونه بما أشاح عنه طوال حياته ، واذا بالأمر صريح بالمقال فضلا عن صراحته بلسان الحال : هم يستكثرون عليه كنيته أبا بكر فيكنونه أبا الفصيل وأعوانه يردون عليهم ذلك الاستهزاء متوعدين : لتروننه غدا أبا الفحول •

وهنالك الرجل الذي كان مثلا في الاقتداء بالرسول حيثما سبقت سابقة يقاس عليها ، وقد سبقت هذه السابقة في فريضة من فرائض

الاسلام ، وهى فريضة الصلاة ، وذهب أناس من المثقفين يعرضون على النبى اسلامهم على أن يعفيهم من الصلاة ، فقال عليه السلام : « لا خير فى دين لا صلاة فيه » . وكذلك لا خير فى دين لا زكاة فيه .. فاذا جاء المرتدون يزعمون أنهم مسلمون يقبلون فرائض الاسلام ولا يقبلون الزكاة ، فليس أبو بكر بالذى يقبل منهم ما يزعمون .

انما كان أبو بكر اذن أصدق ما كان لنفسه يوم قابل الردة بدرس الطاعة التى لا هوادة فيها ، ولم يكن فى باطن الأمر غريبا من المعهود فيه ، وان لاح فى ظاهر الأمر أنه جاء بالغريب من رجل وديع رقيق .

ولقد أكثر المؤرخون من الكتابة عن حروب الردة ما لم يكثروا قط فى حادث من حوادث صدر الاسلام ، وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الاسلام الأولى فى مقاومة الشرك ودعوة الاسلام الثانية فى مقاومة الارتداد ، فانما كانت الغلبة على فتنة المرتدين فتحا جديدا للدين الناشىء[1] .

وما انتهت حروب الردة حتى بدأت فى تاريخ الاسلام مرحلة أخرى أجل وأعظم ، تصدى لها الصديق بذلك العزم الذى تصدى به لكل ما عقد النية عليه وآمن بصوابه : اقدام كأنه لا يعرف المبالاة والتدبير ، ومبالاة وتدبير ، كأنهما لا يعرفان الاقدام .

كانت المرحلة الأولى تأمين الاسلام فى عقر داره .. وكانت المرحلة الثانية تأمين الاسلام فى حدوده وتخومه ، ودفع الخطر من هجوم الأعداء عليه .

ونقول تأمين الحدود ولا نزيد .. لأننا نعتقد أن الصديق رضى الله عنه أخذ فى تسيير البعوث الى حدود العراق والشام وهو على هذه النية دون نية الفتح بالسلاح ، وأنه ، رضى الله عنه ، قد التزم فى سياسته الخارجية خطة النبى عليه السلام فى تلك السياسة ، وهى

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨ .

الخطة التى ظهرت فى بعثة تبوك ثم فى بعثة أسامة بن زيد ، وأصدق ما يقال فيها انها خطة لا هجوم فيها ولا تهجم ، ولا باعث لها الا دفع الأذى وحماية الطريق ، والتمهيد لنشر الدين بالحسنى والبرهان ، فان قامت عقبة من قوة طاغية تحول دون ذلك فعلى القوة الطاغية حساب تلك العقبة ، حيثما حان أوان الحساب .

أما « غزوة فارس » فقد كانت استطرادا لحروب الردة فى أطراف البحرين ، فكانت القبائل التى تدين لسلطان فارس توالى الاغارة على أرض المسلمين فيدفعونها ويقتصون منها ويتعقبونها فى بلادها . وكان الصديق رضى الله عنه يجهل اسم القائد المقدام الذى كان يتولى الدفاع والتعقيب فى تلك الأنحاء ، فسأل عنه فى شىء من العجب : من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فعرفه به قيس بن عاصم قائلا : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد : هذا المثنى بن حارثة الشيبانى !

فكان هذا الاستطراد فى حرب الردة بداءة الاشتباك بفارس ومن والاها من قبائل البحرين والسواد ، ومضت الأحداث شوطا قبل أن تنقلب الى الحرب الضروس بين العرب وفارس فى أوسع نطاق . فلما أرسل الصديق خالد بن الوليد لنجدة المثنى بن حارثة أمره أن « يتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم » . وتقدم خالد فى تأمين الطريق ، فصالح أهل الحيرة وغيرهم على « أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ... فان هم خالفوهم فلا ذمة ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد ، وعلى المسلمين المنع لهم ... وأيما رجل منهم وجد عليه شىء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب .. »[1] .

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٢٧٠

فمن طلائع الغزوة الفارسية يلوح للمتتبع لها أنها غزوة فرضتها الأحداث على الخليفة الأول ، فاستجاب لها بما ينبغى أن يستجيب ، وقبل المناجزة حين لم يكن له من قبولها مناص ، ولم ينس مع هذا أن يتألف الأمم ويسالم الأمراء ويدعوهم الى السلام والاسلام ، ويشخص اليهم من يعلمهم ما هو وصف الدين الذى يدعوهم اليه ، فان أصاخوا اليه فلا حرب ولا عداء ، وان جردوا له السيف رجح معهم الى حكمه الذى نزلوا عليه .

وهكذا قدر للخليفة الأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الاسلامية الناشئة فى سياستها الداخلية وسياستها الخارجية ، فما صنعه فقد استمر فيه على خطة النبى عليه السلام ، وما صنعه الذين لحقوا به فانما هو نتيجة لازمة لما بدأ فيه .

وشاء الله أن يشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله بعينه ، وهو حظ لا يتاح للكثيرين ممن يفتتحون الدول العظام ولا سيما الشيوخ .. فشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله وفيما هو آخذ فى التمام ، وفارق الدنيا وهو يعلم أنه قارن التوفيق فى حرب فارس كما قارنه فى حرب الردة ، وليس بينهما تفاوت فى الاقدام ولا فى ثقة اليقين والايمان .

واننا نعتقد أن الخليفة الأول قد أعطى الروية حقها كما أعطى اليقين حقه ، فما كان أبو بكر بالرجل الذى ينسى الحيطة كلما وجبت الحيطة على ولى الأمر ، وهى هنا على أوجب ما تكون ..

وحسبنا من ذلك حيطته فى حراسة المدينة وتبييت الجند بالمسجد حين تجرد لكفاح أهل الردة ، ثم وصيته لخالد بن الوليد ـ وقد علم حنكته فى فنون الحرب وقدرته على قيادة الجيوش ـ فلم ينسه هذا العلم أن يزوده بالنصح حين خرج لحرب المرتدين ، فيدير هذا النصح كله على الحيطة والحذر واليقظة ، كما قال من كلام رصين وجيز : « اذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن الحملة فانى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بأفراد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ،

وسر في أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فان في العرب غرة ... واذا لقيت أسدا وغطفان فبعضهم لك ، وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص دائرة السوء ينتظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فانه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم ، فان كفاك الله الضاحية فامض الى أهل اليمامة ، سر على بركة الله »[1] .

ولم ينس قط ما بين جنده وجند العدو الأجنبى من فروق العدة ، فكان يعمل تدارك هذا الفرق ورأب هذا الصدع ما استطاع .. فذهب يوما يتفقد جنده الذين هموا للخروج لغزو الشام فلم تعجبه عدتهم وسأل من حوله : ما ترون فى هؤلاء ان أرسلتهم الى الشام فى هذه العدة ؟ فقال عمر : ما أرضى هذه العدة لجموع بنى الأصفر ، وقال بقية أصحابه : نحن نرى ما رأى عمر ، فكتب الى أهل اليمن يستكمل العدة ويستنهضهم الى الجهاد ليخفوا اليه بما يسد هذا النقص من جند وسلاح .

فالرجل الذى لا تفوته فائتة من شأن القبائل التى يرسل اليها بعوثه ، والرجل الذى يختار القائد فيحسن اختياره ثم لا ينسى من ذلك وصيته وتحذيره واتمام عدته بما يقارب عدة عدوه ، والرجل الذى يقرن ذلك كله بالحيطة فى مدينته بما وسعه — ليس هو الرجل الذى يزجى البعوث الى تخوم فارس ولم يأخذ للأمر مثل هذه الحيطة ولم يعمل فيه مثل هذه الروية ، وليس بالذى يجازف وله مندوحة عن المجازفة من ارجاء أو مسالمة الى حين . وانما يرجو الغلبة بالقليل على الكثير لأنه لا يعتمد على « عدة الايمان » ويعلم أن الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة باذن الله .

ولم يتسع الزمن لاقامة نظام للدولة الاسلامية فى عهد أبى بكر

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٢٧٢ — ٢٨٣ .

على مثال النظم السياسية الادارية التى تقام فى الدول الكبار فى حداثة نشآتها . أو لعل المسألة هنا ليست مسألة اتساع الوقت وضيقه فى عهد الخلافة الأولى ، ولكنها مسألة الحاجة الى تلك النظم وقلة الحاجة اليها .. ففى عهد الخليفة الأول بعد النبى صلى الله عليه وسلم لم يطرأ على ادارة الدولة الاسلامية ما يدعو الى نظام جديد غير النظام الذى كانت تجرى عليه فى عهده عليه السلام . لأن الجزيرة العربية عادت بعد حروب الردة الى مثل ما كانت عليه فى أيام النبوة ، ولأن الأرجاء الأجنبية التى زحفت عليها بعوث المسلمين لم تزل الى آخر خلافة الصديق فى دور الغزو والفتح ولم تبلغ بعد الى دور التوطيد والتنظيم . فكل ما جرى عليه النظام فى أيام النبوة فقد كان صالحا للاتباع فى أيام الخلافة الأولى .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الأداة الحكومية ــ أو الادارية ــ لم تكن فى عهد الصديق بحاجة الى نظام غير النظام الذى اتخذه النبى عليه السلام ، واكتفى به فى ادارة الشئون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية ، مع التعديل الذى اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبى عليه السلام ، وغياب المرجع الأعلى الذى ترفع اليه جميع الأمور .

فتولى بيت المال رجل سماه النبى عليه السلام « أمين الأمة » وهو أبو عبيدة بن الجراح ، وتولى القضاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره وهو عمر بن الخطاب ، وتولى الكتابة كاتب النبى عليه السلام زيد بن ثابت ، وكانت ولاياتهم أقرب الى الارتجال والتداول منها الى التكليف الدائم المرسوم .

وكان قادة الجند يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاة والقضاء على النحو الذى ألفوه فى الجزيرة العربية ، ومن عرضت له مشكلة من مشكلات الادارة فى بلد أجنبى تركها على النحو الذى كان مألوفا فى ذلك البلد ، الا ما كان فيه خلاف للدين .

وكل من ولاه النبى عليه السلام فى حياته عملا من الأعمال العامة

أبقاه الصديق فى مكانه ، أو رده اليه إن كان قد تحول عنه ، أو استأذنه فى تحويله عنه ان بدا من مصلحة المسلمين ما أوجب تحويله .

وقد جرى الصديق فى سياسة الدولة على سنة النبى عليه السلام من مشاورة ذوى الرأى والثقة فى كل ما جل أو دعا الى السؤال ، ولكنه كان يستقل بالرأى حين تكون التبعة فيه تبعته هو دون غيره ، كما استقل بالرأى فى اختيار الخليفة من بعده ، واستقام له بعد المشاورة والروية أن يعهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب .

فخلاصة ما يقال فى سياسة الصديق للدولة الاسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدى المقتدر الفعال الذى يصغى الى النصح ممن يرون التصرف والتمييز ، ولم يكن قط مقتديا على ضعف وتواكل والقاء بالتبعة على غيره ، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعة من أعمال المتصرفين .

واذا حسبت لأبى بكر بعوث أسامة وبعوث الردة وبعوث فارس والروم ، فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل فى باب البعوث ، ولكنه أقوم للدولة الاسلامية من جميع هذه البعوث ، لأنه دستور هذه الأمة التى لم تقم لها قائمة بغيره ، وهو « جمع القرآن » .

وقد كانت سنته فى جمع القرآن سنته الواضحة التى لا محيد عنها : وهى سنة الاقتداء والاصغاء الى القويم من الآراء . فلما مات من مات من حفاظ القرآن فى حروب الردة وخيف على من بقى منهم أن تأتى عليهم حروب فارس والروم ، كبر الأمر على عمر ، فأشار على الخليفة بجمع القرآن . فأحجم بادىء الرأى ، وهو يقول : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر ، فتجرد له بجميع عزمه ، وانتهت خلافته على القول الأشهر والقرآن مجموع مفروغ من كتابته فى المصاحف كما نقرؤه الآن .

وكانت الدولة الاسلامية بهذه المثابة أمانة أعظم بها من أمانة تنوء بها كواهل الرجال . يقول من شاء ما شاء فى دراسة هذه الفترة الخالدة ، الا شيئا واحدا لا يقول عارف بما يقول ، وهو أن أحدا كان يتلقى تلك الامانة خيرا من تلقيه أو يسلمها خيرا من اسلامه ، منذ أن تلقاها بيد من النبى عليه السلام حتى أسلمها بيد الى عمر ابن الخطاب[1] .

* * *

(١) **المرجع السابق** . ص ٢٧٨ .

ثالثـا : الفاروق عمر بن الخطـاب

فى دروب التاريخ ، سـنحاول أن نلتقى بالرجل الذى لم تسعدنا المقادير باللقـاء معه فى دروب المدينة • حيث كانت سجاياه وعظمته تملآن الزمان والمكان بما لا عين رأت ولا أذن سمعت من عدالة الحاكمين ، وزهد القادرين وزهد الناسـكين ، وقـوة الودعاء الراحمين ، ووداعة الأقوياء المتقين ••

سنحاول أن نعيش لحظات فى رحاب عمر ، ونأخـذ من المشـهد المكتوب عوض ما فاتنـا من المشهد الحى • ونلقى السمع والبصر والفؤاد بين يدى هـذا القوى الأمين ، والمعلم الذى ليس له بين المعلمين نظير ، ونقضى فى معيته لحظات ترفع من قدر حياتنا •

و « معية » أمير المؤمنين ، ليست مثل « معيات » غيره من الأمراء والحاكمين •• انها شىء مختلف جدا •• فلا مكان فيها لأطايب الطعام ، ومناعم الشراب ، ومباهج الحياة •• لا مكان للفرش المرفوعة ، ولا للأكواب الموضوعة ، ولا للنمارق المصفوفة ، ولا للزرابى المبثوثة ••

لا مكان للراحة •• لا مكان للزهو •• لا مكان للزلفى ••

من أجل هـذا ، كان الاقتراب من هذه « المعية » رهيبا ، بقـدر ما هو حبيب الى النفس ، وبقدر ما يفضى اليه من شرف عظيم •

و « عمر » من الطراز الذى تغمرك وأنت تقرأ تاريخه المكتـوب كل الهيبة التى تغمرك وأنت تجالس ذاته وشخصه •

والمشهد المسطور من تاريخه ، لا يكاد يختلف عن المشـهد الحى الا فى غياب البطل عن حاسـة البصر •• أما الأفئدة •• أما البصيرة •• فتحس وهى تطالع سـيرة عمر أنها تعايشـه ، وتجالسـه ، وترى رأى العين جلال الأعمال ، ومناسـك البطولات التى يتناولها بيـد أسـتاذ عظيم ، جـد عظيم ••

ولكن على الرغم مما تفرضه صحبة عمر من حرمان وشظف .. فبئس على ظهر الأرض بهجة ، ولا متعة ، ولا نعمة ، تفوق مباهج ومناعم هذه الصحبة بحال !..

فالرجل الكبير فى بساطة ، البسيط فى قوة ، القوى فى عدل ورحمة ، لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون ، ولكنه يمنحهم بدلا من الراحة المفقودة ، أعظم ما فى الحياة من سؤدد ، وغبطة ، وتفوق .

هذا هو أمير المؤمنين .. الرجل الذى أنجبته البشرية ورباه الاسلام ..

هذا هو الحاكم المؤمن الذى اذا ذكر رؤساء الدول والحكومات منذ فجر التاريخ الانسانى الى يومنا هذا ، كان أعظمهم وأبرهم ، وأذكاهم — من غير مبالغة !..

هذا هو الناسك الذى تفجر نسكه حركة ، وذكاء .. وعملا ، وبناء .. هذا هو المعلم الذى صح مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نورا من روحه ، وكساها عظمة من سلوكه ، وكان للمتقين اماما[1] !..

ترى ماذا يذكر التاريخ اليوم من نبئه العظيم ، وبم يلهج الناس من سيرته الفاضلة ؟

هل يذكرون فتوحاته على كثرتها ؟.. وهل يذكرون انتصاراته على روعتها ؟..

ان سلوك أمير المؤمنين يشغل التاريخ ويشغل الناس عن كل شىء سواه .

● ودائما ، وأبدا ، تظل على الحياة صورة ذلك الانسان المؤمن الذى يجرى فى وقت الحر القاتل وراء بعير من أموال الأمة مخافة أن يتيه (يشرد) ويضيع ، فيحاسبه الله حسابا عسيرا !..

---

(١) خالد محمد خالد : **بين يدى عمر** ، (القاهرة : دار المعارف) ، ص ١٢ — ١٣ .

● أو الذى يصطحب زوجته فى الهزيع الأخير من الليل حاملا على كتفيه وفى يديه جراب دقيق ، وقربة ماء ، ووعاء السمن حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة أدركها المخاض ، وحيث يجلس هو خارج الكوخ ينضج لها الطعام اللازم للوالدات !..

● أو الذى يتأخر عن خطبة الجمعة ، ثم يجىء مهرولا فى بردة مليئة بالرقع ، وتحتها قميص لم يجف بعد من البلل ، ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تأخره فيقول : « حبسنى عنكم قميصى هذا .. كنت أنتظره حتى يجف ، انه ليس لى قميص غيره ..» !.

هذا هو عمر فى ذاكرة التاريخ ، وفى ضمير البشرية .. هذا هو منارة الله فى الدنيا ، وهديته الى الحياة .

وعلى مائدته الخالية من أطايب الطعام ، الحافلة بأطايب العظمة ، سنقضى أسعد وأرغد لحظات حياتنا ..

كانت مكة تودع ضيوفها الذين وفدوا عليها من شتى بقاع الجزيرة ليشهدوا مهرجان « عكاظ » ، حيث تزهو القبائل بشعرائها المتفوقين ، وحيث تزدان حلبة المصارعة بفتيان قريش يعرضون ألعابهم فى فن عظيم .

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدوا الرحال راجعين الى بلادهم ، عدا نفر قليل منهم استهواهم البلد الحرام ، فآثروا المكث .. ومن هؤلاء النفر ، ذلك الشيخ الذى يقطع الطريق وهنا ، ميمما وجهه شطر دار الندوة ليقضى بها ساعة الأصيل مع رفاقه فى الشيخوخة .

.. وانه لماض فى سبيله ، اذ لقيه فى الطريق أعرابى يعمل راعيا لدى واحد من سادات قريش .. ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تنحدر الكلمات من بين شفتيه فى حمية وعجلة .

ـ هل علمت النبأ العظيم يا أبا العرب ؟

ـ أى نبأ يا بنى ؟..

ـ ذلك الأعسر اليسر (الذى يعمل بكلتا يديه) ..

ويتساءل الشيخ قائلا :

ـ الذى كان يصارع فى سوق عكاظ ؟..

ـ أجل ـ هو ..

ـ ما باله يا فتى ؟..

ـ لقد أسلم واتبع محمدا ..

ويفيق الشيخ من الدهشة ، ويقول وقد كست وجهه حكمة السنين :

« أما والحق ، ليوسعنهم خيرا .. أو ليوسعنهم شرا » !..

أما الأعسر اليسر الذى كان يصارع فى سوق عكاظ ، فهو غير ..

وأما نبوءة الشيخ ، فقد جاءت كفلق الصبح ، وضوء النهار .

ومن ذلك اليوم ، لم يعد الأعسر اليسر .. « عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى » ، من بنى عدى .. لم يعد ذلك الذى يصارع الأشداء فى سوق عكاظ ، بل صار « الفاروق عمر » الذى سيصارع الباطل فى جزيرة العرب ، أول النهار .. وفى كل الدنيا ، آخره ..

وسيكون الرجل الذى يملأ أرض الناس عدلا ، وأمنا ، ورحمة ، وهدى ..

سيكون « المعلم » الذى يبلغ الرشد الانسانى على يديه رشده .. و « الأستاذ » الذى تجلس الدنيا عند قدميه ..

أجل .. سيكون الانسان الذى يرفع الله به من قدر البشر ، وقدر الحياة[1] ..

● **رجل عبقرى ممتاز :**

« .. لم أر عبقريا يفرى فريه .. » (أى عبقرى منفرد فى عمله ، فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه) .

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١٧ ـ ١٩

كلمة قالها النبى عليه السلام فى عمر رضى الله عنه ، وهى كلمة لا يقولها الا عظيم عظماء خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال .

فمن علامات العظمة التى تحيى موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها ، أولاهما أن تبعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها الى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم ، ولأى المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ، ومتى يحين أوانه وتجب ندبته ، ومتى ينبغى التريث فى أمره الى حين ؟..

كلتا القدرتين كان لها الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب .

فأين — لولا الدعوة المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب — كنا نسمع بابن الخطاب ؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء ؟

انه الآن اسم يقترن بدولة الاسلام ودولة الفرس ودولة الروم وكل دولة لها نصيب فى التاريخ . فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة المحمدية ؟

لقد كان عمر قوى النفس .. لكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام ، ولم يكن ممن يندفعون الى الغلبة والتوسع فى الجاه والسلطان ، بغير دافع يحفزه اليه وهو كاره لأنه كان مفطورا على العدل واعطاء الحقوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس من حوله .

فعمر بن الخطاب الذى عرفه تاريخ العالم وليد الدعوة المحمدية دون سواها ، بها عرف وبغيرها لم يكن ليعرف فى غير الحجاز أو الجزيرة العربية ..

أما القدرة الأخرى التى يمتاز بها العظيم الذى خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبى عليه السلام فى كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى ، أى من اللحظة التى سأل الله فيها أن يعز به الاسلام ، الى

اللحظة التى ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو ــ عليه السلام ــ فى مرض الوفاة .. فقد سبر غوره واستكنه عظمته ، وعرفه فى أصلح مواقفه ، فعرف الموقف الذى يتقدم فيه على غيره والموقف الذى هو أولى بتقديم غيره عليه .

فالنبى عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر . وقد عادل بينهما أجل معادلة حين قال : « ان الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : « من تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم » ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» . ومثلك ياعمر مثل نوح قال:«رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، ومثلك كمثل موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

كان النبى عليه السلام يعلم ــ أن عمر أشد المسلمين فى الله ، ويعلم أن فى أبى بكر لينا وهوادة . فجمع للاسلام مزيتين حين اختار أبا بكر للصلاة وضمن هذا الاختيار معنى من معانى الاستخلاف .. أو كما جاء فى بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبى بكر بالقول الصريح[1] .

فتعزيز الاسلام بعد نبيه كان فى حاجة الى كثير من الهوادة واللين ، وكان كذلك فى حاجة الى كثير من الشدة والصرامة ، ولن تذهب شدة عمر اذا احتاج اليها أبو بكر فى محنة يشتد فيها اللين الوديع . انما الخوف أن يذهب لين أبى بكر اذا اشتد عمر ، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد . فان الموقف اذا استنفد جميع الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر الى البأس ويصر عليه ، فأقرب شىء أن يعدل عمر عن لينه أن يثوب الى المعهود من صرامته .

---

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٣١٥

يوصف عمر بالعبقرية اذا نظرنا الى أعماله ، ويوصف بها اذا نظرنا الى تكوينه الذى جعله مستعدا لتلك الأعمال مضطلعا بتلك القدرة . الا أن عمر كان رجلا ممتازا بعمله ، ممتازا بتكوينه ، كان وفاء شرط التفرد فى عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين .

كان مهيبا رائع المحضر حتى فى حضرة النبى عليه السلام التى تنظامن عنده الجباه ، وأولها جبهة عمر . كان طويلا بائن الطول يرى ماشيا كأنه راكب ، جسيما صلبا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب .

وتشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة ، أو معدن العبقرية والامتياز بين بنى الانسان ، وللمحدثين علامات فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال ..

فيكون العبقرى طويلا بائن الطول ، أو قصيرا بين القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره على غير المعهود فى سائر الناس أو بنزارته . ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارىء ، فيكون فيهم من تفرط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وبخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة فى الفراسة ، وتارة فى النظر على بعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله[1].

وفى عمر بن الخطاب من هذه العلامات الكثير ..

كان ــ كما ذكرنا ــ طويلا يمشى كأنه راكب ، وكان أعسرا يسرا يعمل بكلتا يديه ، وكان أصلع خفيف العارضين ، وكان ــ كما وصفه غلامه ــ خير الناس ، الا أنه اذا غضب فهو أمر عظيم ..

وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله ، وأثر البكاء فى صفحتى وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢٢

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » .. وكان له فراسة عجيبة نادرة .. وتروى فى أمر هـذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة الى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها ، وهى أنه اشتهر بالفراسة والاستنباط بالنظرة العارضة .

على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما تسمى فى علم النفس ، انما تظهر بأجلى معانيها فى قصة « سارية » المشهورة ، وهى ما تعرف فى علم النفس « بهبة التلباثى » أو التخاطر أو الشعور عن بعد Telsparhy .. كان رضى الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة ، فالتفت من الخطبة ونادى :

« يا سارية بن حصن ! الجبل .. الجبل .. ومن استرعى الذئب ظلم » .

فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته ، فسأله على رضى الله عنه : ما هذا الذى ناديت به ؟ قال : أو سمعته ؟ .. قال : نعم .. أنا وكل من فى المسجد . فقال عمر : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا اخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل .. فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر ، فذكر أنهم سمعوا ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية ابن حصن ! الجبل .. الجبل . فعدلنا اليه ففتح الله علينا .

ولا داعى للجزم بنفى هذه القصة استنادا الى العقل أو الى العلم أو الى التجربة الشائعة .. فان العقل لا يمنعها ، وعلماء النفس لا يتفقون على نفيها ، الا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهورا بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية اما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد ، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الانسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها .

فعمر رجل نادر بما تراه منه العين ، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق ، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين .. أو هو رجل ممتاز ، وعبقرى موهوب فى جميع الآراء .

● صفاته :

لا تناقض فى خلائق عمر بن الخطاب ، وانما الأمر الميسور فى التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدا لا يسترها حجاب . فما من قارىء ألم بفذلكة صالحة من ترجمته الا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلا ، وكان رحيما ، وكان فطنا ، وكان وثيق الايمان عظيم الاستعداد للنخوة الدينية .

لم يكن عمر عادلا لسبب واحد بل لجملة أسباب .. كان عادلا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه ، فهو من أنبه بيوت بنى عدى الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية ، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلا بعد جيل على الانصاف وفصل الخطاب ، وجده نفيل بن عبد العزى هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بنى أمية حين تنافرا وتنافسا على الزعامة . فهو عادل من عادلين ، وناشىء فى مهد الحكم والموازنة بين الأقوياء ..

وكان عادلا لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه .. وان شئت فقل أيضا بتكوينه الموروث . اذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة والبأس .. فهو على خليقة الرجل الذى لا يحابى لأنه لا يخاف ، والذى يخجل من الميل الى القوى لأنه جبن ، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزرى بنخوته وشممه ..

وكان عادلا لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس وكانوا أشداء فى الحرب ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه ، وساعدت عبر الأيام

على تمكين خليقة العدل فى خلاصة هـذه الأسرة ، أو خلاصة هـذه القبيلة ، ونعنى به عمر بن الخطاب .

وكان عادلا بتعليم الدين الذى استمسك به وهو من أهله بمقدار ما حاربه وهو عـدوه ، فكان أقوى العـادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين ..

وهكـذا اجتمعت عناصر الوراثة الشـعبية ، والقوة الفـردية ، وعبر الحوادث وعقيدة الدين فى صـفة العدل التى أوشكت أن تستولى فيه على جميع الصـفات .

وصـفات عمر كلها صـفات لها طابع البطـولة ، وفيها دواعى الاغراء بالاعجاب والمبالغة . وممن ؟ .. من الأصـدقاء المصدقين لأنهم لا يتهمون بقصد السوء وهم فى الواقع أولى بالاحتراس من الخصـوم المتهمين .

فالعـدل مثلا هو المسـاواة بين أبعد الناس وأقربهم فى قضـاء الحقوق واقامة الحدود .. وليس أقرب الى الحاكم من ابنه .. فاذا سوى الحاكم بين ابنه وسـائر الرعية ، فذلك عدل مأثور يقتدى به الحكام .. ولقد سوى عمر بين أبنائه وسـائر المسلمين ، فبلغ بذلك مبلغ الطولة فى هـذه الصفة النادرة بين الحكام ..

وذلك كاف فى تعظيم قدره .. ولا حاجة بعده الى مزيد ..

وكانت الرحمة من صـفاته التى وازنت فيه العدل أحسن موازنة .. فما عهد فيه أنه أحب العـدل لغضـه من الأقوياء المعتـدين كمـا كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه .

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام : « ان الله غيور يحب الغيور . وان عمر غيور » .. وحسبك من غيرته أنه هو الذى أشـار على النبى صلى الله عليه وسلم بحجاب أمهات المسلمين . على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصـورة على المرأة

وكفى ، بل غيرته على المرأة لم تكن الا شـــطرا من غيرته على كل حرم وحوزة • فمن هــذه الغيرة العــامة سياسته العربية التى كانت تصد الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد ، ومنها غيرته على الزى العربى والشـــمائل العربية ، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة ، وغيرته على كل حق يحميه غيور •

فهو يغار على حق ، أو يغار على عرض ، أو يغار على دين ، أو يغار على صديق أو صاحب حرمة ، ولا يغار من هــذا أو ذاك لنعمة أصابها هــذا أو ذاك •• انما كان يغار على شىء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته ، فهى غيرة من يريد الحماية لغيره ، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة انســان على حظه ••

انه رجل قوى ، جياش الطبع ، شــديد الشكيمة ، مؤمن بالحق وحرماته ، قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترىء عليها •• فان لم يكن هــذا غيورا ، فمن يكون الغيور ؟

وقل فى ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه ما تقول فيما اشــتهر به من صــفات العدل والرحمــة والغيرة ••

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس ، ولم يحكم عليهــا قط كأنه ينظر من جانب واحد أو يطبعها فى تفكيره بطابع واحد • بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الانســان ، وراح فى علمه هــذا يراقب الناس مراقبة الحذور ، ويقيم عليهم الأرصاد اقامة الرجل الذى لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر وقوة وضعف وصلاح وفســاد •

وكفى من كلماته الدالة عليه أن نذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير ، لأن « الذى لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه » ، وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول : « أعقل الناس أعذرهم للناس » ، وأنه هو القائل : « احترسوا من الناس بســوء الظن » ، وهو القائل مع ذلك : « أظهروا لنا حسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر »

•• يوفق فى هذين القولين بين سهر الحاكم الذى لا ينبغى أن تخفى عليه خافية وبين عدل القاضى الذى لا ينبغى أن يحكم بغير بينة ظاهرة •

ولو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر الى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد ، وأن للأمور وجوها لا تنحصر فى الوجه الذى يراه ، وكثيرا ما قال : « أخوف ما أخاف عليكم اعجاب المرء برأيه » ، وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الاعجاب بالرأى شيمة رجل محصور التفكير ضيق المنافذ الى الحقيقة •

انما كان عمر كما وصف نفسه : « ليس بالخب (الخداع) ولكن الخب لا يخدعه » ، وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود والدهاء المذموم ، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح ، فهناك فطنة تسىء الظن لأنها تشعر شعور السوء ، والفرق بينهما عظيم •• الفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذمة • فالفطنة الأولى معرفة حسنة والفطنة الثانية خلق ردىء ، وانما كان عمر بالفطنة الأولى معصوما من أن يخدع أو ينخدع لغيره ، وهذا هو الحد القوام الذى لا نقص فيه من جانبه[1] •

على أن القدرة الذهنية التى امتاز بها عمر فى غنى عن الاستدلال عليها بما قال ، وما قيل فيه ، وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمحاورات • انه عمل ما لم يعمله الا القليل من أقدر الحكام فى تاريخ بنى الانسان ، وكفى بذلك دليلا على قدرته الذهنية لا حاجة بعده الى دليل •• ساس شعوبا بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس والأقباط والسوريين ، ونصب ولاة واتتدب قوادا ، وسير بعوثا ، وأشرف على ميادين قتال ، وأقام نظما فى الحكومة ، وراقب رعاة ورعية ، ونجح فى كل ما عمل نجاحا منقطع النظير غير مردود الى المصادفة أو الى ارتجال المغامرين •• وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود

(١) **المرجع السابق** . ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

الفكر ضيق الأفق قليل الخبرة بالجماعات والأفراد • فاذا استوفى هـذا الحظ الوافر من القدرة الذهنية ، فذلك حسـبه منها ، فان الدنيا أخرجت عمر للناس ليكون مؤسس عهد ومحول تاريخ •

لقد كان عمر قويا قادرا على العواقب ، وكان شـديد الألم من ظلم الظالم شـديد الخجل من خذلان المظلوم ، وكان وثيق الايمان بنصر الله فى الحق وفى النجدة •• كان قويا بطبعه قويا بايمانه ، فلماذا يهاب قويا جار على ضعيف ؟ ولمـاذا يروغ من صرامة القاضى الى دهاء السـياسى الذى يدور حول الحدود والحقوق ؟

تلك صـورة مجملة للصـفات الخلقية الكبيرة التى كانت غالبة على نفس عمر بن الخطاب وهى : العـدل ، والرحمة ، والغيرة ، والفطنة ، والايمان •• فاذا نظرت الى تلك الصـفات أجزاء متفرقات فهى صـفات سـهلة بسيطة ليس فيها شىء عويص أو مكتنف بغموض • ولكنك تنظر اليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشـة والاعجاز ، أو جانب الندرة التى يعز تكرارها فى طبـائع النفوس ، لأنها تتركب لاسـتيفاء الغرض منها جميعا واسـتيفاء الغرض فى كل منها على حـدة ، وهذا هو النادر جـد الندرة فى تركيب الأخلاق ••

ما العدل مثلا بغير الرحمة التى تمزجه بالاحسـان ؟ وما العدل والرحمة معا بغير الحماسة والروحية والغيرة اليقظى التى تجعل كراهة المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذى يصيبه فى نفسـه وآله ، وتجعل حبه للعـدل كأنه حب هواه وقبلة مناه ؟ وما العـدل والرحمة والغيرة جميعا بغير فطنة تضع الأمور فى مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يسـتحق ويغفل عمن يسـتحق وهو حسن القصد غير متهم الضمير ؟ وما العـدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الايمـان الذى هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع ، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الانصاف ؟

كل صفة تتمة لجميع الصفات وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم

به نصر الحق وخذلان الباطل .. وكل خليقة هى جزء لا ينفصل من هذه « التركيبة » التى اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق ، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها فى بلوغ كمالها وتحقيق غايتها ..

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد فى مرآها ، ولا تزال فى صورة البساطة بعيدة عن التركيب .. فيخطىء النظر القصير فى التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشىء البسيط المحدود ، وانه لخطأ شائع ينساق اليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر ، وهى أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج ، ثم يزيد فى الألوان ولا يزيد فى الاتمام والتوحيد والاتقان .

● **عمر والدولة الاسلامية :**

تأسست الدولة الاسلامية فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، لأنه وطد العقيدة وسير البعوث .. فشرع السنة الصالحة فى تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . وكان له السبق على خلفاء الاسلام فى هذين العملين الجليلين .

الا أننا نسمى عمر مؤسسا للدولة الاسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق فى أعمال الخلافة . لأننا ـ أولا ـ لا نجد مكانا فى التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام . ومن جهة أخرى ، فاننا لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة فى اقامة كالدولة الاسلامية ، اذ الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس التوسع فى الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسا لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الاسلام وأذانه ، وأعزها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسسا لها يوم بسط يده الى أبى بكر فبايعه بالخلافة وحسم الفتنة التى أوشكت أن تعصف بأركانها . وكان مؤسسا لها يوم أشار على أبى بكر بجمع القرآن الكريم ، وهو فى الدولة الاسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم .

هـذا الى أن أبا بكر رضى الله عنه أسس ولم يتسع له الأجل حتى يفرغ من عمله ، وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأسـاس ثم أقام عليه البنـاء .. وكانت قدرته على التأسيس هى آية الآيات فيه ، وفى ذلك العصر من البداوة البادية ، لأنه التفت الى مواضعه الخليقة بالاهتمام والتقديم كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك راسخة العمران . وهى قدرة تروعنا وتدهشنا من ملك تربى على الملك ، وسـلفه على عرشه سـمط من الملوك . وأولى أن تروعنا وتدهشنا من رجل البادية الذى يقدم على أمر جديد ، لم تعنه فيه السوابق ، ولم يهتد فيه الا بما اختار هو أن يهتدى اليـه .

ونذر فى الدولة الاسـلامية من نظـام لم تكن له أولية فيه .. فافتتح تاريخا ، واستهل حضـارة ، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصـول القضاء والادارة ، واتخذ لها بيت مال ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمى ثغورها بالمرابطين ، وصنع كل شىء فى الوقت الذى ينبغى أن يصنع فيه ، وعلى الوجه الذى يحسن به الابتداء . فأوجز ما يقال فيه أنه وضع دسـتورا لكل شىء وتركه قائما على أسـاس لمن شـاء أن يبنى عليـه .

وملاك النظم الحكومية كلها نظام الشـورى الذى أقامه عمر على أحسن ما يقام عليـه فى زمانه ، فجمع عنده نخبة من الصحابة للمشاورة والاسـتفتاء ، وضن بهم على العمالة فى أطراف الدولة ، تنزيها لأقدارهم وانتفاعا برأيهم واعتزازا بتأييدهم له ومعاونتهم اياه فيما تولاه من ثواب أو عقـاب .

وجعل موسـم الحج موسـما عاما للمراجعة والمحاسـبة واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة من أقصاها الى أقصاها .. يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسـابهم وأخبار ولايتهم ، ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكيهم ، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم فى أنحاء البـلاد لمراقبة الولاة والعمـال .. فهى « جمعيـة عمومية » كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية فى عصر من العصـور .

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويستمع اليهم ويسمعهم ، ويتوخى فى جميع ذلك تمحيص الرأى وابراء الذمة والخلوص الى التبعة السليمة من العراقيل .

وقد وضع لقواده دستور الحرب ، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية الى تخوم أعدائها ، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده .. فأرسل المدد الى العراق ، وعليه أبو عبيدة بن مسعود الثقفى ، وعلمه كيف يستشير مجلس الحرب الذى معه ، وكيف يقدم فى موضع الاقدام ، ويتريث فى موضع التريث ، وأجمل له ذلك فى قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا بل اتئد .. فانها الحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة » . وزاده تبصرة بالحيطة ، فقال له : « انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة .. تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه . فانظر كيف تكون . وأحرز لسانك ولا تفشين سرك . فان صاحب السر ـ ما يضبطه ـ متحصن لا يؤتى من وجه يكره . واذا لم يضبطه كان بمضيعة » .. فهو المشاورة، ثم أناة فى الاجتهاد ، الا أن تجب السرعة ببيان وثقة فليكن الاسراع .

فكان دستوره فى الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد فى تنفيذها الى ذى خبرة وأمانة ، ولا يتخلى عن تبعيته العظمى فى مصائر الحرب كل التخلى اعتمادا على القائد وحده ، اذ ليس القائد بالمسئول الوحيد عن المصير .. فاذا رأى القائد رأيا وخالفه هو فى رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأى دعاه اليه ، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر واعانته عليه .

ولقد كان الى جانب هذا السهر على الميادين عامة ، لا يغل يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه ، فاذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظام الهجوم ، فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع اليه ، وأن يجرى فى ادارة المعركة

على الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة . ولهذا استشاره أبو عبيدة فى دخول الدروب خلف العدو ، فكتب اليه : « أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك ، وعيونك يأتونك بالأخبار ، فان رأيت الدخول الى الدروب صوابا فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم ، وان طلبوا اليك الصلح فصالحهم .. » .

وهو بعد هذا لا يعفى نفسه من التبعة ، ولا يعفى القائد من واجب الرجوع اليه فى المواقف الحاسمة ، ولا يغل يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه ، ولا ينسى أن يعينه اذا خالفه ليتفق الرأيان المختلفان .. وهذه السياسة هى السياسة التى جرى عليها عمر فى جميع بعوثه وغزواته ، وهى السياسة التى لا يستطيع حاكم أن يجرى على غيرها فى حرب قديمة أو حديثة ، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد فى الميدان ، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور فى التاريخ والأساطير يقول : « ان عمر هو هازمه فى الميدان .. وأنه هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ! .. أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ! .. »[1] .

ولم يكن يبيح من مال المسلمين أجرا لعمله الا ما يقيم أوده وأود أولاده عند الحاجة اليه ، فان رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال كف يده عنه . ولما سئل عما يحل للخليفة من مال الله قال : « انه لا يحل لعمر من مال الله الا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف وما أحج به وأعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين » .

وكان يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يغضى عنها حيثما توقف صلاح الولاية على ذلك .

---

(١) **المرجع السابق** ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥

قدم الى الشـــام راكبا على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم ، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى فى سـبيله ولم يرد عليه ســلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ؟ فالتفت اذ ذاك الى معاوية وســأله : انك لصاحب الموكب الذى أرى ؟ قال : نعم .. قال : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم .. قال : لم ويحك ؟ قال : لأننا فى بلاد كثر فيها جواسيس العــدو ، فان لم تتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينــا ، وأما الحجاب فاننا نخاف من البذلة جرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فان استنقصتنى نقصت ، وان استزدتنى زدت ، وان استوقفتنى وقفت ! فقال عمر : ما سألتك عن شىء الا خرجت منه . ان كنت صــادقا فانه رأى لبيب ، وان كنت كاذبا فانها خدعة أريب ، لا آمرك ولا أنهاك[1] .

أما دســتور الولاة فأساسه أن الولاية تمييز بالواجب والكفــاءة وليست تمييزا بالوجاهة والاستعلاء ، فكان يقول للوالى : « افتح لهم بابك وباشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا » .

وشــغله كل الشــغل أن تخضع الرعية لواليها رغبة فى حكمــه واطمئنانا الى عدله ، فكان يقــول للوالى : « اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس » ويقــول للرعية : « انى لم أبعث اليكم الولاة ليضربوا أبشاركم ويأخذوا أموالكم ، ولكن ليعلموكم ويخدموكم »[2] .

وما لم يكن عزل العمال من أســباب السياسة العليــا ، فلا جزاء الا بقسطاس دقيق ، ولا ســيما فى الشئون المــالية ، لأنه يعتمــد فى محاســبتهم على وســائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض ، فلا تكاد تخفى عليــه خافية مما يريد الوقوف عليــه ..

---

(١) **المرجع الســابق** ، ص ٤٠٨
(٢) **نفس المرجع** .

فمن هـذه الوسائل أنه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زادوه بعد الولاية مما لا يدخل فى عداد الزيادة المعقولة ، ومن تعلل منهم بالتجـارة لم يقبل منهـا دعواه لأنه كان يقـول لهم : انما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجارا ..

ـ ومنها أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوه ما ظهر وما خفى من أمرهم ، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس اليه أن يرفع نبأه الى الخليفة ..

ـ ومنها أنه كان يندب لهم وكيلا خاصا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعـة فيها ، ليسـتوفى البحث فيما ينقله الرقباء والعيون ..

ـ ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهارا اذا قفلوا اليها من ولاياتهم ، ليظهر معهم ما حملوه عند عودتهم ، ويتصل نبأه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقى الطريق ..

ـ ومنها أنه كان يستقدمهم فى كل موسـم من مواسـم الحج ليحاسبهم ويسـمع ما يقولون وما يقال فيهم ، وعليهم شـهود ممن يشاء أن يحضر الموسـم من أهل البلاد . ونوى فى أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير فى البلاد ، فيقيم شـهرين فى الشام ، ومصر ، والبحرين ، والكوفة ، وغيرها . فانه ليعلم « أن للناس حوائج تقطع عنه أما هم فلا يصلون اليه ، وأما أعمالهم فلا يرفعونها اليه » .

وكانت سـنته اذا ثبتت على الوالى شـبهة التصرف فى بيت المـال أن يصادر المـال الذى ظفر به أو يقاسم الوالى فيما أربى على كسـبه المعقول فيترك له النصف ويضم النصف الآخر الى بيت المـال ، هذا عدا ما يجزيه به من عزل أو عقاب .

أما حسـاب الشكايات من المظالم ، فكانت سـنته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المسـاواة بين أكبر الولاة وأصـغر الرعية بغير تفرقة

بين السيئة وجزائها .. فمن ضرب ضرب ، ومن غصب رد ما غصب ، ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب .

ومن هذا العدل فى شئون الولاية ، نستطيع أن نفهم دستوره فى شئون القضاء ، فلن يكون هذا الدستور الا دستور العدل المحكم فى الجزاء والفصل بين الحقوق .. الا أننا نعتقد أن وصاياه فى القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه ، فلا تعقيب بعدها لمعقب فى زمانه أو فى زمان يليه ، مهما تختلف الأقوام والأوقات .. فلقد أنشأ وظائف القضاء وتخير لها العدول الأكفاء . ولم تكن به حاجة هنا الى سن الشريعة التى يحكمون بها فانها ماثلة فى كتاب الله والسنة ، ولكنه كان فى حاجة الى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر فأحسن التعليم .

ومن وصاياه للقاضى : « آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا وأحل حراما ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه . فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، واعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى اليه . فان أحضر بينته أخذت له بحقه ، والا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر .. ثم اياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس »[1] .

---

(١) **المرجع السابق** ، ص ٤١٤

وأنشئت فى عهد عمر دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الاحصاء والخراج والمحاسبة التى لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده .. فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب . ووكل معظم الدواوين لأبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة وليس من الميسور أن ينصرف اليها فتيان العرب عما هو أولى وهو فرائض الدفاع والجهاد .

وكان له نظام اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده ، فكان يحض على التجارة ويوصى القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك ، ولكنه أبقى الأرض لأبنائها فى البلاد المفتوحة ، ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند فى الجيش القائم . واذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء . وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم وأن يعتصم الجند الاسلامى من فتن النزاع على الأرض والعقار ومن فتن الدعة والاشتغال بالثراء .

ويلوح فى كلامه فى أخريات أيامه أنه كان على نية النظر فى تصحيح النظام الاقتصادى ، وعلاج مشكلة الفقر والغنى ، على نحو غير الذى وجدها عليه . فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء » .

ولم يرد فى كلامه تفصيل لهذه النية .. ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه .. فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدا بين المساواة فى الآداب النفسية والمساواة فى السنن الاجتماعية . فكتب الى أبى موسى الأشعرى : « بلغنى انك تأذن للناس جما غفيرا . فاذا جاءك كتابى هذا فأذن لأهل الشرف وأهل التقوى والدين ، فاذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة » . ولكنه لما رأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم فى مكة غضب وقال لسادتهم مؤنبا : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟.. ثم دعا الخدام فأكلوا مع السادة فى جفان واحدة .

فالمساواة فى أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفى التفاضل بالدرجات . ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا من العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم فى خطبة : « يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم لقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين » وكان يوصى الفقراء والأغنياء معا أن يتعلموا المهنة فانه يوشك أن يحتاج أحدهم الى مهنة وان كان من الأغنياء .

وعرضت لعمر مسائل على حسب الحاجة اليها فى وقته ، فلم تجده مسألة منها دون ما تحتاج اليه من اصابة الرأى وحسن الروية . فكانت نصائحه فى تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح وكانت دواعيه الى بنائها من أشرف الدواعى وأليقها بالأمير .. وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجا بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة ، وضرب له الموعد حولا يفرغ فيه من حفره واعداده لسير السفن فيه ، فساقه من جانب الفسطاط الى القلزم ، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن وسمى خليج أمير المؤمنين .

وكان اضطلاعه بتفريج الأزمات والكوارث ، كاضطلاعه بتدبير الحاجات الى التعمير والتنظيم .. ففى السنة الثامنة عشرة للهجرة فاجأه قحط الرمادة المشهورة ، وهو القحط الذى لا يقال فى وصفه أوجز من قولهم يومئذ أن الوحش كانت تأوى فيه الى الانس ، وأن الرجل المتضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعافها لقبحها .. فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطب ، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت ، وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين الى حيث يعثر بالجياع والعاجزين عن حمل قوتهم ، وآلى على نفسه لا يأكل طعاما أنقى من الطعام الذى يصيبه الفقير المحروم من رعاياه ، فمضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت ونظر فى كل شىء حتى فى تعليم كل بيت كيف ينتفع بالرزق الذى يرسله اليهم مع عماله ..

لم يعرف تاريخ الغزوات والفتوحات رعبا كهذا الرعب الذى ألقاه

الله فى قلوب الفرس من المسلمين ، حتى حسبوا كل صيحة عليهم ! ولم يكره رؤساؤهم أحدا كما كرهوا « عمر » ، فهو الذى قصم ظهورهم ، وثل عرشهم .. احتشدوا يوما للوثوب على المسلمين ، لاسترداد ملكهم ، وجمعوا للمسلمين أضعاف جندهم ، ثم فوجىء المسلمون بالفرس يفرون من أمامهم !.. ذلك أن الفرس شاهدوا غبارا كثيفا ورايات تخفق بألوانها المختلفة ، فحسبوا أن مددا ضخما توافد الى المسلمين ، واذا بالغبار الكثيف ينجلى عن نساء مسلمات ، جئن لخدمة المحاربين وعلاج جرحاهم ، فاتخذن من خمرهن رايات خفاقة تعددت ألوانها ، فحسبها الفرس أعلام قبائل العرب المختلفة ، وحسبوا أن عمر سير كل رجال القبائل مددا لجيشه !

ولم يكد المسلمون يطمئنون فى الأرض التى فتحوها ، حتى فكر عمر فى وضع نظام شامل يسلك هذه البلاد المفتوحة جميعا : فى العراق وفارس والشام ، فى وحدة قوية متماسكة مع شبه الجزيرة العربية ، ليكونوا كلهم أمة واحدة ، يدينون بدين واحد ، ويعبدون الها واحدا لا شريك له ، ويكون لهم لسان واحد : لسان عربى مبين !.. فأرسل عمر عددا من الصحابة يعلمون ويفقهون الذين أسلموا ، حتى يحسن اسلامهم ، ويسيروا فيما بينهم بما أمر به الاسلام من التراحم ، والتآخى ، ومكارم الأخلاق .

ولكن هذا وحده لم يكن هو قوام الدولة .. فقد صمم الفاروق عمر على توفير عناصر الوحدة جميعا ، وأهمها اللغة .. من أجل ذلك فتح مكاتب لتعليم الصغار ، ومدارس للكبار ، وجعل فيها معلمين أجرى عليهم الأرزاق رواتب شهرية .. واهتم اهتماما بالغا بوحدة اللغة ، فحض على تعلم اللغة العربية ، وكان يقول : « عليكم بالتفقه فى الدين ، وحسن العبادة ، والتفهم بالعربية » ، ويقول : « تعلموا العربية فانها تثبت القلوب ، وتزيد فى المروءة »[1] .

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوى : **الفاروق عمر بن الخطاب** . (القاهرة : مركز الأهرام للنشر ١٩٨٧) ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

● صـورة مجملة :

صحبنا عمر بن الخطاب فى حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال .. صحبناه فى جاهليته واسـلامه ، وفى سره وعلانيته ، وفى دينه وثقافته ، وفى اتصـاله بالله واتصاله بالناس . فاذا الصـورة المجملة من جميـع هـذه الصـور المختلفة صـورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصـور . واذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصـفات الانسانية توافقت فيـه على قوة نادرة وتلاقت فيـه الى غاية واحـدة : هى احقاق الحق وادحاض الباطل ، ووسمته جميعا بسمة الجندية المجاهدة التى تحمى الحدود للناس ، وهو فى طليعة من يحمى وفى طليعة من يحتمى على السـواء .

رسخت فى طويته خليقة المساواة فى العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التى لا تنفصل عنه ، وحتى أصبح يتجرد من نفسـه أو يجرد منها شـخصا آخر غريبـا عنه لا فرق بينه وبين أحـد فى حـدود الله وحرماته ، وتمكنت هـذه الخليقة منه حتى جرت على لسـانه عامدا وغير عامد ، فكان يتكلم عن نفسـه كما يتكلم عن غريب : بخ بخ يا عمر !.. ويحك يا ابن الخطاب !.. ماذا يقول عمر ؟.. وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى ... الى أشـباه هذه التجريدات التى تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس ، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس .

كانت فيـه خشونة الأقوياء الصرحاء ، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة : « باطنـه خير من ظاهره » ، أو كما قال فيه الصديق من كلام فحواه : « ان مبغضيه هم المبغضون للخير » .

وكان له محبون من كرام الناس لا يعدلون بحبـه حب أحـد من أمثاله .. والغالب فى أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبـة أن تحجب عنهم الهيبـة ألفـة الغرباء الذين لا يختلطـون بهم فى السر والعلانية ، بل تحجب عنهم ألفة الأقربين فى كثير من الأحيان ، لأنهم من

تفردهم بالصراحة والحق فى عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم اليهم .

ولكنهم لا يكرهون الا عن خطأ أو حسد لئيم . وكان عمر على وجه التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية فى قلب انسان : لأنه كان على عظم « شخصيته » مبرأ من العنصر الشخصى فى معاملة الأصدقاء والخصوم . وانما ينجم العداء الشديد من الاحساس بهذا « العنصر الشخصى » ومقابلته بمثله مقابلة انتقام .. فالذين كانوا يذوقون انصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه ، والذين كانوا يذقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبا لهم ، وانما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رؤوسهم ، ويتساوون فيه عمر وأبناء عمر لو وجب العقاب . فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس .. ولهذه الصفة أو الخصلة ذكره بالحب والاعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء ، وانطبعت نفوسهم على الدهاء والهجاء .

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلا فلا يكون قتله دليلا على بغضاء « شخصية » أو خلة ترتبط بحياته الفردية . فانما البغضاء « الوطنية » هى علة التآمر على قتله بين المغلوبين فى ميدان القتال على التحديد . وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكراه فانما هى فى أصلها « بغضاء وطنية » كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية ، وان تطاولت الأيام .

ان مقتل عمر أحرى أن يعد جزءا من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية تختم تلك السيرة دون أن تضيف اليها .. فقد تمثلت فى مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت فى جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله ، فكان عمر الصريع قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والايثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير ، كما كان عمر فى أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير .

لقد كان يؤم الناس للصلاة عندما طعنه القاتل ، فلم تشغله الطعنات المفاجئات عن الصلاة ، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم فى موعدها ، وسأل عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس .. ولم يهمه من قتله بعد أن حمل الى منزله الا أن يعرف : أللظلمة كان قتله أم لبغى من القاتل ؟.. فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال : ولم قاتله الله وقد أمرت به معروفا ؟.. ثم حمد الله قائلا : « الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له قط .. ما كانت العرب لتقتلنى » .

وهمه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله . فأمر ابن عباس أن يخرج الى المهاجرين والأنصار يسألهم : أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟.. فصاحوا معلنين : « لا والله .. ولوددنا أن الله زاد فى عمره من أعمارنا » .

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه قائلا : « ويحكم أيها الناس .. أأنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظر فى أمور المسلمين » ؟.. فلما قال الطبيب مقالته أخذ فى تدبير شئون الدولة الهامة وأولها الخلافة ، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ، ونجا بأهله منها وهو يقول : « .. أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وان نجوت كفافا لا وزر ولا أجر انى لسعيد » .

فلما فرغ من شئون الدولة فى أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده ، وأقبل يطمئن الى مضجعه فى جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا . فدعا بابنه عبد الله ينطلق الى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام .. ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين ، لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرا .. ثم يستأذنها أن يدفن الى جوار صاحبيه ، يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق .. ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها ، واستأذنها فأذنت وقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى !..

فلم يكفه هذا حتى يستوثق من رضاها ، فعاد يخاطب ابنه « يا عبد الله بن عمر .. انظر ، فاذا أنا قبضت فاحملوني على سريري ثم قف على فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فان أذنت لي فأدخلني ، وان ردتني فردني الى مقابر المسلمين ، فاني أخشى أن يكون اذنها لي لمكان السلطان »

قال شهود دفنه : « فلما حمل ، فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة الا يومئذ » .. وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم أو متهم بظلم . فما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة الى العدل فيها كما دلها هذا الختام[1] ..

* * *

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٥٢٣ ـ ٥٢٨ .

رابعا : ذو النورين : عثمان بن عفان

لقد كشف مقتل عمر فى بلاد العرب نفسها عن ظاهرة لم تكن لتوجد لولا قيام الدولة العربية الاسلامية فمنذ طعن أبو لؤلؤة عمر تولى المسلمين الفزع اشفاقا على مصيرهم ، وجعلوا يفكرون فيمن يخلفه • اذا قضى الله فيه بقضائه • وتحدث قوم الى عمر فى هذا الأمر وطلبوا منه أن يستخلف • وتردد عمر بادىء الأمر وقال : « ان أستخلف فقد استخلفت من هو خير منى ، وان أترك فقد ترك من هو خير منى » • لكنه خشى بعد اعمال الفكر أن يضطرب الأمر اذا تركه رسلا • فقد اشترك العرب جميعا فى محاربة الفرس والروم وأصبح لكل قبيلة أن تزعم لنفسها ما للمهاجرين والأنصار من حق الاشتراك فى اختيار الخليفة ، وقد يذهب بعضها الى ادعاء الحق فى ترشيح زعيمها لمقام الخلافة • وفى هذا الادعاء من الخطر على الامبراطورية الناشئة ما لم يفت عمر • لذلك لم يلبث أن جعل الخلافة من بعده شورى فى ستة يختارون أحدهم لها • وهؤلاء الستة هم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص • فلما عينهم بأسمائهم قال : « لا أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدى » •

واختيار عمر هؤلاء الستة يقف النظر •• فليس بينهم واحد من الأنصار ولا من غيرهم من قبائل العرب ، بل هم جميعا من المهاجرين ومن قريش • ومع ذلك لم يثر اختيار عمر اياهم ثائرة الأنصار ولا ثائرة غيرهم من العرب الذين أقبلوا الى المدينة أفواجا بعد أداء فريضة الحج وظلوا بها بعد مقتل عمر حتى بايعوا خليفته • واطمئنان الأنصار وغيرهم من العرب الى اختيار عمر هؤلاء الستة يعيد الى الذاكرة ما حدث فى سقيفة بنى ساعدة اثر وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ••

فقد أراد الأنصار أن يكون الأمر لهم بعد رسول الله • فلما قدم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الى السقيفة كان مما قاله أبو بكر : « نحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، اخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدو • أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعا • أما العرب فلن تعرف هذا الأمر الا لهذا الحى من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء » •

أصبحت هذه الكلمة دستور الخلافة والحكم بين المسلمين قرونا حسوما منذ قالها أبو بكر • لذلك لم يعترض أحد استخلاف أبى بكر عمر ، ولم يعترض أحد اختيار عمر الشورى بين هذا الحى من قريش ، بل اطمأن له الأنصار واطمأن له العرب جميعا ، وتركوا للستة أن يختاروا من بينهم من يرضونه خليفة لجماعة المسلمين •

ولقد اجتمع أصحاب الشورى لأول ما سماهم عمر ، فاذا هم يختلفون ، فيقول لهم عبد الله بن عمر : « أفتؤمرون وأمير المؤمنين حى » ؟ وسمع عمر هذه العبارة فناداهم : « أمهلوا ، فان حدث بى حدث فليصل بكم صهيب ثلاث ليال ، ثم أجمعوا أمركم ، فمن تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه » •

لم يكن أحد الصحابة المرشحين للخلافة من بنى هاشم ، وكان عثمان بن عفان من بنى أمية •• فهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس • وكان أبو بكر أول رجل أسلم حين دعاه رسول الله بعد بعثه الى الاسلام • وأذاع أبو بكر بين أصحابه دعوة الحق فتابعه هؤلاء الخمسة وعثمان على رأسهم ، ودخلوا فى دين الله وآمنوا بالله ورسوله • وهؤلاء الخمسة الذين سبقوا الى الاسلام واستمسكوا به وحاربوا فى سبيله ، ومات رسول الله وهو عنهم راض ، هم الذين جعل عمر بن الخطاب الشورى فيهم وجعل معهم على بن أبى طالب ابن عم رسول الله وختنه على ابنته فاطمة • ذلك أن عليا كان أول من أسلم من بنى هاشم ثم حضر الغزوات كلها مع رسول الله •

ويلى الزبير بن العوام عليا فى القرابة من رسول الله ، فأمه صفية ابنة عبد المطلب عمة محمد ، وقرابته هذه دفعته فأسلم وهو ابن ستة عشر سنة ، ثم لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله . وقد بايع رسول الله يوم أحد على العرب . فلما كان يوم الخندق ندب رسول الله من يأتيه بخبر الأحزاب الذين حاصروا المدينة ، فانتدب الزبير فقال رسول الله : « ان لكل نبى حواريا وحوارىى الزبير ابن العوام » . وكان الزبير الى قوة شكيمته وشدة بأسه كريما فى الناس عزيزا عليهم ، لهذا أدناه رسول الله وبادله الحب . وقد أحبه أبو بكر وعمر كما أحبه رسول الله .

لم يكن لعثمان بن عفان هذه القرابة من رسول الله ، فجده أبو العاص بن أمية ، لكنه كان ختن رسول لله على ابنتيه رقية وأم كلثوم ، ولما تزوج رقية هاجرت معه الى الحبشة ، وبقيت معه الى ما بعد الهجرة الى المدينة . وقبيل غزوة بدر مرضت فتخلف عثمان عن الغزوة بأذن رسول الله لتمريضها ، فلم يغن عنها التمريض فماتت ، فزوج رسول الله عثمان أختها أم كلثوم ، فبقيت معه سنوات ثم ماتت قبل أبيها . فقال رسول الله يعزى عثمان : « لو أن لنا ثالثة زوجناك ». ذلك أن عثمان كان رجلا صالحا لينا حسن المعاشرة كريما ، فكان رسول الله يحبه أعظم الحب ويعرف له فضله ورجحان عقله وحسن ايمانه .

لم يكن صهر عثمان الى النبى هو وحده الذى أدناه من محمد وأدناه الى قلبه ، بل انه كان كذلك من السابقين الأولين الى الاسلام ، لم يصده عنه منافسة قومه بنى أمية لبنى هاشم ، وقد أثار اسلامه غضب قومه عليه . واشتد به أذى قومه من بعد ، فهاجر الى الحبشة . ولما هاجر بعد ذلك الى المدينة لم يضن على المسلمين بالبذل من ماله الكثير لمعونتهم ، بل اشترك بأوفر نصيب فى تجهيز الجيش الى تبوك . وكان عثمان كاتبا من كتاب الوحى . لا جرم ، وذلك قربه من رسول الله أن كان له بين المسلمين حظوة ومقام كريم .

أما سعد بن أبى وقاص فكان من بنى زهرة أخوال النبى ، وهو قرشى • وكان من أسبق الناس الى الاسلام ، فقد أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة • وكان ذا مال ونعمة ، وشهد مع رسول الله الوقائع كلها ، ووقف الى جانبه ودافع عنه يوم أحد حين ولى الناس • وكان له من مواقف البطولة والاقدام ما جعل المسلمين يجمعون على اختياره لمواجهة الفرس فى القادسية •

وكان عبد الرحمن بن عوف ـ كسعد بن أبى وقاص ـ قرشيا من أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان صهرا لعثمان بن عفان وابن عم لسعد بن أبى وقاص • وكان منذ نشأته تاجرا أمينا مما جعله موضع الثقة بين الناس • وكان موضع الثقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخل فى دين الله مع السابقين والأولين حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عنه : « أمين فى الأرض أمين فى السماء » • وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثره بصحبته ، كما كان يشير على أبى بكر وعمر • وكان لأمانته ورفقه يحظى من ثقة أهل الرأى وطمأنينتهم ما جعل الكثيرين يرشحونه للخلافة بعد عمر •

وكان طلحة بن عبيد الله من قبيلة أبى بكر ، وكان تاجرا يذهب فى رحلتى الشتاء والصيف الى اليمن والى الشام • وكان يعد من حكماء قريش ومن أكثر أهل مكة شجاعة وكرما • فلما بعث النبى وأسلم أبو بكر كان طلحة أول من جاء الى الصديق وذهب معه الى النبى وأعلن اليه اسلامه • فلما استقر المسلمون بالمدينة وبدأت الغزوات كان طلحة فى مقدمة الذين اشتركوا فيها • ولما أصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد وقف طلحة الى جانبه وكان من أشد المدافعين عنه حتى أصابته جراحات كادت تقضى عليه • وبعد غزوة تبوك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم طلحة فأحرق بيت سويلم اليهودى الذى اتخذه المنافقون كهفهم للدس بين المسلمين • واذ بويع أبو بكر بالخلافة ووقف فى وجه المرتدين كان طلحة مع على والزبير

على حراسة المدينة ، ثم ان الخليفة استبقاه بعد ذلك الى جانبه مع المشيرين عليه أمثال عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من كبار الصحابة والسابقين الى الاسلام • وكان طلحة ممن عارضوا أبا بكر فى استخلاف عمر حين كان الصديق فى مرضه الأخير • ولم يغير رأى طلحة فى عمر من مكانته عند الفاروق بعد استخلافه ، فقد بقى بالمدينة يشير عليه كما كان يشير على أبى بكر • فلما طعن عمر جعل طلحة فى الشورى رغم غيابه عن المدينة ، ثم قال لجماعة الشورى : « انتظروا أخاكم طلحة ثلاثة أيام فان جاء والا فاقضوا أمركم » •

أما وهؤلاء الرجال الذين اختارهم عمر للشورى ، وهذه صلتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ومواقفهم منه ، الا أنه اشتد الخلاف بينهم لاختيار أحدهم فى الخلافة ، حتى استقر الرأى على أن عليا وعثمان هما المتنافسان الأساسيان على الخلافة • ويجمع المؤرخون على أن المشاورات أسفرت عن كثرة تشبه الاجماع فى صف عثمان • وكان عبد الرحمن بن عوف هو القائم بالمشاورات ، ولما اجتمع الناس بالمسجد ، رفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال ثلاثا : « اللهم اسمع واشهد » • ثم قال : « اللهم انى قد خلعت ما فى رقبتى من ذلك ، وجعلته فى رقبة عثمان » ، وبايعه • عند ذلك أقبل من بالمسجد يتزاحمون يبايعون عثمان[1] •

● **نشأة عثمان وشخصيته :**

نشأ عثمان فى نعمة ، وكانت ولادته بالطائف أخصب بقاع الحجاز ، لست سنوات مضت من عام الفيل ، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف العيش قط فى صباه أو طفولته • وهو ابن عفان بن أبى العاص ابن عبد شمس بن عبد مناف • كان أبوه تاجرا واسع التجارة ، وكان

---

(١) محمد حسين هيكل : **عثمان بن عفان** (ط ٥) . (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨١) ، ص ١٧ — ٣٤

يحمل قوافله الى الشام ، وفى احدى هـذه الرحلات التجارية مات عن ثروة عظيمة ، وترك ابنه بين الصبا والشباب .

ويروى ـ كما جاء فى ابن الأثير ـ أن عقبة بن معيط شكاه الى أمه ـ وكان قـد تزوج بها بعـد وفاة عفان ـ فقال لها : « ان ابنك قد صـار ينصر محمدا » ، فلم تنكر ذلك من ابنها وقالت : « من أولى به منـا ؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد » .

ويبدو من دراسـات علم النفس أن « مشكلة الأب » قد تمكنت من طوية الصبى فكان لها فعلها فى توجيـه شعوره من ناحية ذويه ومن ناحية البيئة بأسرها ، فضاعفت ما فى وراثته الأموية من الايواء الى ذوى قرباه ، وهيأت نفسـه للنفور من الوضـع القائم فى البيئة ، فلم يصعب عليـه أن ينكر الأوضاع القائمة فى نطاقها الأعم الأوسع ، وهو نطاق الشـعائر الجاهلية .. ذلك أنه نشـأ وهو يحس أن رب البيت الذى نشـأ فيه غاصب ينتزع مكان أبيه ، فتمكنت من نفسه الريبة فى الأوضاع القائمـة ، ولم يحتملها الا على مضض الكاره وترقب المتربص ، وبخاصة حين تأتى من ناحيـة الأم التى تتمثل لابنها فى هـذه الحالة كأنها مغلوبة على أمرها منتزعة ممن هو أحـق بها .

ونقرأ وصـف عثمـان على ألسـنة معاصريه فنراهم مجمعين على صفتين لم ينسهما أحـد منهم ، وهما الجمال والحياء .. فقد كان ربعة لا بالقصـير ولا بالطويل ، حسـن الوجه ، مشرف الأنف ، بوجنتيـه آثار الجدرى ، رقيـق البشرة ، أسمر اللون ، كثير الشعر ، وبه صلع مع طول فى لحيته وغزارة فى عارضيه . وكان خفيف الجسم ولكنـه لم يكن بضعيفه .. أما خلائقه فقـد أجمع واصفوه على أنه كان عذب الروح حلو الشـمائل ، محببا الى عارفيه .

دخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المـال ، فجاء ابن عثمان فأخـذ شيئا من فضة ومضى به ، فبكى زياد .. فقال عثمان :

« ما يبكيك » ؟ قال : « أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما ، فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام ، وان ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحدا قال له شيئا » . قال عثمان : « ان عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله ، وانى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله . ولن تلقى مثل عمر ، لن تلقى مثل عمر .. » .. وقد سمع غير مرة يقول : « يرحم الله عمر ، من ذا يطيق ما كان يطيقه » !

وصفوة القول فى خلائق عثمان أنه كان الى صفات الطيبة والسماحة أقرب منه الى صفات البأس والصرامة ، وأن نشأة العيش الخفيض (اللين) صحبته من صباه الى شيخوخته ، وفى غير تبعة عليه كما قال[1]. وكانت له سماحة محببة حيث يجود ويتكلم كلام التجار فى مساوماتهم وهو على غاية الجود .. قال ابن عباس : « قحط الناس فى زمن أبى بكر ، فقال أبو بكر : لا تمسون حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان من الغد جاء البشير فقال « لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما ، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب ، فخرج اليهم فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برا وطعاما . بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة ، فقال لهم عثمان : ادخلوا ! فدخلوا فاذا ألف وقر (حمل) صب فى الدار ، فقال لهم : كم تربحونى على شرائى من الشام ؟ فقالوا : العشرة اثنى عشر ــ قال : قد زادونى . قالوا : العشرة أربعة عشر . قال : قد زادونى ، قالوا : العشرة خمسة عشر . قال : قد زادونى .. قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟ قال : زادونى بكل درهم عشرة . هل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة »[2] .

ويشير عثمان هنا ــ كما هو ظاهر ــ الى جزاء الحسنة بعشرة

---

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٥٦٥ ــ ٥٧٢
(٢) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٥٧٥ .

أمثالها عنـد الله .. وكان يدخل عرف الاحسـان فى صفقات التجارة . وهى تلك المعاملة التى اصطلح الناس قديما على أنها شىء يتقدم فيـه حساب المودة على القرابة .. فقيل فى أخبار عثمان فى هذه الخصلة أنه ابتاع بسـتانا من رجل ، فساومه حتى قام على عثمان ، فالتفت عثمان الى عبد الرحمن بن عوف فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله عز وجل أدخل الجنة رجلا كان سـمحا بائعـا ومبتاعا ، وقابضا ومقبضا . ثم زاد الرجل العشرة آلاف فى الثمن[1] .

وأسعدت شمائل السماحة فيه بخصال أندر فى أبناء النعمـة من خصال الكرم والاحسـان ، فقـد يهون على المرء أن يتجرد من بعض ماله ، ولا يهون عليـه أن يتجرد من بعض كبريائه وخيلائه وتعاليه على أنداده ، فضـلا عمن يعلوهم بالبسـاطة والجـاه .. وكان المـأثور عن عثمان ـ كما روى عن مولاة له ـ أنه « كان لا يوقظ أحدا من أهله الا أن يجـده يقظان فيدعوه » .

فهذه شخصية سمحة .. تساندت فيها مناقب السماحة ، وأوشكت أن تسـتوفيها على مثـال منقطع النظير فيمن عرفنـاهم من الأعلام بين الجاهلية والاسـلام : كرم وحياء ودعة ورفق وأريحية ومروءة تعين على المروءات .. فهل يقال على هـذا انها شخصية سمحة وكفى ؟ هل يقال انها شخصية خلت من صـفات البأس والصرامة ، أو كان حظها من هذه الصـفات ضئيلا لا يلتفت اليـه ؟ هل يقال انها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردد فيها ؟

ان القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسـها قوة لا يضطلع بها طبع ضعيف ، وصعب على من ينظر فى أعماله جميعا ولا يكتفى منها بأعماله التى يبـدو عليها الضعف والتردد ، ولم يكن عهد من عهود سـيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس ومناعة خلق

(١) المرجع السـابق . ص ٥٧٦ .

وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر ، وحسبنا من عهود سيرته ما أحاط بأطرافها من أول اسلامه الى ختام حياته .. فقد كان اسلامه تحديا قويا لخاصة أهله ، ثبت عليه . وقد تلقى فى أول خلافته صدمات لم يتعرض لها الفاروق أو لأخطر منها فى جميع أيامه . ومنها هزيمة الجيوش وفناء بعضها بين عوارض الأجواء القصية ، وانقضاض الروم على أطراف الدولة الاسلامية الحديثة .. وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يذعن لمن توعدوه به جهرة ورددوه على مسامعه ليل نهار .

ان شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحى قوتها وضعفها شخصية سوية ، لا تناقض بين ما علمناه من أخبارها وأعمالها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئة والعقيدة .. وقد ذكرنا بين مؤثرات البيئة وراثته الأموية ، ويتمه فى صباه ، ونشأته فى بيت يتولاه غير أبيه ، وانتماءه من جانب الأمومة الى بيت عبد المطلب .

والعقيدة الدينية لا تبطل سماحة عثمان ولا تغض من قيمتها ، وتظل هذه السماحة سماحة مقومة فى معيار كل فضيلة ومعيار كل فاضل ، لا يغير منها أن العقيدة بعثتها فى مبعثها هذا ، أو حركتها بعد سكون ، أو خلقتها خلقا من حيث لم تكن .. فقد كان مع عثمان أناس من منبته لم يعتقدوا كما اعتقد ، ولم يزل بينهم وبين الاعتقاد حجاب من عوج العقول وعمى البصائر وأثرة الجهالة ، وكل أولئك محسوب معدود فى معايير الأخلاق .

● **ثقافة عثمان :**

من البديهى أن ثقافة الأقدمين غير ما نقصده بكلمة الثقافة فى العصر الحديث ، ولكنه فرق يحسب للأقدمين ، ويشهد باجتهادهم ودرايتهم بالاستفادة من القليل المبعثر ، حيث لا يستفاد اليوم من الكثير المجموع المبسر لطالبيه . ولقد كان الأقدمون بهذا المحصول القليل

يعملون ما يعجز نوابغنا ، ويتكلمون فى المعضلات . فاذا بالكلمة الوجيزة فصل الخطاب . ولقد كانت الكلمة تسمع وتحفظ ، وتنقل من سلف الى خلف ، وتندمج فى تجربة كل سامع ، كأنها زيادة عضوية تتوالد ولا تموت . وكانت تصان كما تصان ذخائر الآباء والأجداد .

وكان عثمان على علم بمعارف العرب فى الجاهلية ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيام . وساح فى الأرض فرحل الى الشام والحبشة ، وعاشر أقواما غير العرب ، فعرف من أطوارهم وأحوالهم ما ليس يعرفه كل عربى فى بلاده ، وجدد فى رحلاته تجديد الخبرة والعمل معارف البادية عن الأنواء والرياح ومطالع النجوم ومقارناتها فى منازل السماء ، وهى معارف القوافل والأدلاء ، من أبناء كل صحراء .

ولما أسلم كان اسلامه قويا ، وكان من أفقه المسلمين فى أحكام الدين ، وأحفظهم للقرآن والسنة ، روى عن النبى عليه السلام قرابة مائة وخمسين حديثا وقال محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة : « كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر » .

وكان أقرب الصحابة الى مجرى الحوادث بين المسلمين والمشركين . فكان من سفراء الاسلام فى غير موقف الخلاف أو الوفاق ، تارة بين المسلمين وأعدائهم ، وتارة بينهم وبين الأسرى منهم فى أرض الأعداء .

وكان كاتبا يجيد الكتابة ، فاعتمد عليه النبى عليه السلام فى تدوين الوحى ، واعتمد عليه الصديق فى كتابة الوثائق الهامة ، ومنها الوثيقة التى عهد فيها بالأمر لخليفته الفاروق .

وزودته معرفته بالأخبار والأنساب وسياحته فى البلاد بزاد حسن من مادة الحديث مع ذوى الكمال من الرجال . قال عبد الرحمن بن حاطب : « ما رأيت أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حدث أتم حديثا ولا أحسن من عثمان بن عفان ، الا أنه كان رجلا يهاب الحديث » .

ولم يكن حديثه لغوا ولا ثرثرة يزجى بها الفراغ بين أهل الفراغ ، بل كان من تلك الأحاديث التى كان يتوق اليها النبى عليه السلام فى بعض أوقاته فيتسناها ، وتروى السيدة عائشة من ذلك أنها سمعت النبى ذات ليلة يقول : لو كان معنا من يحدثنا ؟ قالت : يا رسول الله أفأبعث الى أبى بكر ؟ فسكت . ثم قالت : أفأبعث الى عمر ؟ فسكت . ثم دعا وصيفا بين يديه فساره فذهب ، فاذا عثمان يستأذن ، فأذن له فدخل ، فناجاه عليه السلام طويلا .

ولقد كتب فى خلافته رسائل من النمط الذى لا يرتضى الظن نسبته الى غيره ..

ومن هذه الرسائل كتاب الى عماله يقول فيه :

« استعينوا على الناس وكل ما ينوبكم بالصبر والصلاة ، وأمر الله أقيموه ولا تداهنوا فيه ، واياكم والعجلة فيما سوى ذلك ، وارتضوا من الشر بأسره ، فان قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذى ألف بين القلوب هو الذى يفرقها ويباعد بعضها عن بعض . سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة » .

ومن كتبه الى الجباة :

« أما بعد ، فان الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل الا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما أكتسبتم . والوفاء الوفاء ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله خصم لمن ظلمهم »[1] .

أما الخطابة فقد كانت على هذا النهج من الكتابة السهلة القويمة ، ومن خطبه فى أوائل الفتنة : « ان الناس يبلغنى عنهم هنات وهنات ،

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٥٩٠ ـ ٥٩٢ .

وانى لا أكون والله أول من فتح بابها وأدار رحاها • الا وانى زام نفسى بزمام ، وملجمها بلجام •• ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف ، ومن لم يتبعنى ففى الله خلف منه وعزاء عنه • ألا وان لكل نفس يوم القيامة سائقا وشاهدا : سائق يسوقها على أمر الله ، وشاهد يشهد عليها بعملها • فمن كان يريد الله بشىء فليبسر ، ومن كان انما يريد الدنيا فقد خسر » •

ومن خطبه بعد تفاقم الفتنة خطبة على الروية لم تكن مرتجلة قال فيها :

« ••• آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة ، عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ، ويسترون عنكم ما تكرهون يقولون لكم وتقولون• أمثال النعام يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم اليهم البعيد ، لا يشربون الا نغصا ، ولا يردون الا عكرا ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور » •

وهذه النماذج من كتبه وخطبه لا تورد فى هذا المقام من ناحية البلاغة والبيان مستقلة عن مواضعها ودواعيها ، ولكنها تورد قبل كل شىء لأنها — مع ما تبديه من بيانه — تبدى لنا أسلوب الخليفة الثالث فى علاقته برعاياه من خلال أسلوب الكتابة والخطابة • فقد كانت أوائل كتبه أشبه الكلام بما نسميه اليوم « الأسلوب الرسمى » أو أسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير بغير تنميق ولا محاولة تأثير ، ثم يستطرد الموقف بالخليفة الى ما رأيناه فى خطابه الأخير ، وأول ما يبدو منه أن الراعى والرعية لا يثوبون الى قسطاس واحد ، وتلك بوادر الملك تظهر فى مضامين القول كما ظهرت على ما نراه فى الأعمال والنيات •

● **شئون المجتمع :**

منذ أسلم عثمان الى أن تولى الخلافة تغير المجتمع العربى فى نطاق

واسع ، وأصبحت الصبغة الاسلامية نوعا من الصبغة العالمية ، يكاد آن يقرب بين أساليب المعيشة فى جميع أمم الحضارة الشرقية والغربية .

أسلم عثمان والدعوة الاسلامية محصورة فى آحاد محدودين ، يلتمسون النجاة بعقائدهم وأنفسهم وذويهم من مجتمع الى مجتمع ومن بلد الى بلد . وصاحب الاسلام فى جهاده وفتوحه حتى عم الجزيرة العربية قبيل وفاة النبى عليه السلام ، وأصبح بذلك دينا يجمع بين قبائل العرب على اختلاف الأنساب والطبقات .

ثم صاحب الاسلام فى جهاده وفتوحه أيام حروب الردة وفتوح العراق وما جاوره من أرض فارس والروم ، ثم صاحبه فى جهاده وفتوحه حتى أوشكت هذه الفتوح أن تحيط بالعالم المعمور يوم تسلم زمامه من سلفه العظيم عمر بن الخطاب .

ولم تمض سنوات من خلافة عثمان حتى أحاط العالم الأسلامى بالعالم المعمور كله الا ما كان منه فى أقصى المشرق أو أقصى المغرب ، فأصبحت الصبغة الاسلامية ــ كما أسلفنا ــ صبغة عالمية تشمل العربى والفارسى والرومى والمصرى والبربرى ، تسلكهم كلهم فى دولة واحدة لأول مرة فى التاريخ .

وليس الذى طرأ على المجتمع العربى خاصة أنه عرف الترف ولم يكن يعرفه ، أو عرف الثروة وكان محروما منها . فان الترف والوفر قديمان فى الجزيرة العربية ، وزيادة المقدار لا تحسب من التغير الجوهرى فى المجتمع ان لم تكن مصحوبة بالتغير فى نظرة الانسان الى الحياة ، وهذا الذى غير المجتمع العربى ، وغير المجتمع الاسلامى ، بعد اتساعه وامتداده الى أقصى مداه فى خلافة عثمان .

ان الغنى المترف فى عرف الجاهلية لم يكن يخجل من ترفه ، ولم يكن يحسب أنه يختلس به شيئا ليس من حقه ، بل كان يبذخ فى

ترفه ، ويفاخر نظراءه ببذخه . ومن لم يدرك من الترف والبذخ حظا كحظه فهو متطلع له ، حاسد عليه ، ناظر اليه كما ينظر الى أمنية الحياة ، ان فاتته فقد فاته من حياته خير ما يتمناه .

تغير هـذا بعد الاسلام كل التغير ، وأصبح الترف رذيلة مزدراة ، كائنـا ما كان نصيب المترف من الجاه والثراء ، وأصبح الثراء نعمة دون النعمة الكبرى التى يتطلع اليها المسلم فى حياته الجديدة ، فهو وسـيلة دون غاية ، ومتاع فى حاجة الى تسويغ ، ثم لا مسـوغ للسرف فيـه بأية حـال .

وعلى هـذا كبر مقدار الثروة التى ينعم بها أصحابها بعد أن تغير النظر الى كثيرها وقليلها ومحظوراتها . فربما بلغت ثروة الرجل الواحد فى خلافة عثمان ما يعـدل ثروة السـادة المترفين جميعا على آخر عهد الجاهلية ، وما يحسب حتى فى الأزمنة الأخرى غنى مفرطا عنـد أغنى الأغنيـاء ..

فلقد قيـل فى مصادر متعددة أن عبد الرحمن بن عوف خلف ذهبا كان يقطع بالفؤوس حتى تمجل (تتفيح) أيدى الرجال ، وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شـاة ومائة فرس ، وقسم ميراثه على سـتة عشر سهما فبلغ السهم ثمانين ألف درهم ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضـحا ، ويتجر فيكسب من التجارة مئات الألوف ، وكان كلما اجتمع له من الربح مدخـر كثير فرقه على الغزاة وتصـدق به على الفقراء . قال ابن عباس : « مرض عبد الرحمن بن عوف فأوصى بثلث ماله ، فضـح فتصدق به ، ثم قال : يا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كل من كان من أهل بدر له على أربعمائة دينار ، فقام عثمان وذهب مع الناس ، فقيل له : يا أبا عمر ! ألست غنيا ؟ قال : هـذه وصلة من عبد الرحمن لا صدقة ، وهو من مال حلال ، فتصـدق عليهم فى ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار » .

ولما مات الزبير بن العوام طلب أبناؤه ميراثه ، فأبى ابنه عبد الله أن يقسم بينهم حتى ينادى بالموسم أربع سنين من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه ، لأنه كان يؤتمن على الودائع ممن يترددون على الحجاز للتجارة ، فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم ما بقى من ماله خالصا فاذا هو خمسون ألف ألف ومائتا ألف .

وكان طلحة يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف الى خمسمائة ألف ، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار ، وكان لا يدع أحدا من بنى تيم عائلا الا وكفاه مؤونة عياله ، ويزوج أياماهم ، ويقضى دين غارمهم . وأخرج صاحب الصفوة فيما أخرج من أخباره أنه باع عشان أرضا بسبعمائة ألف حملها اليه ، فلما جاء بها قال : ان رجلا تبيت هذه عنده فى بيته لا يدرى ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله .. فبات ورسله تختلف فى سكك المدينة حتى أسحر وما عنده منها درهم »[1] .

ونحن لا نشك فى عظم هذه الثروات التى توافرت لهؤلاء النخبة من أجلاء الصحابة شيئا فشيئا ، من أيام النبى عليه السلام الى ما بعد قيام الدولة الأموية . والذى نعتقده أن مقادير تلك الثروات أكبر وليست أقل مما توحيه الأرقام ، لأنها اجتمعت من أربح التجارات فى جميع العصور ، وهى التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب من طريق العراق والشام والجزيرة العربية مجتمعات .

لقد كان الملأ من قريش أغنياء مفرطين فى الغنى أيام الجاهلية ، وكان موردهم كله من مواصلات الحجاز بين اليمن والشام ، ولم يكن لهم فوق ذلك سلطان على بقعة وراء الحجاز ، بل كان سلطانهم فى الحجاز نفسه عاجزا عن تأمين قوافلهم بغير المساومة والمقاسمة بينهم وبين قبائل الطريق . فلما استقر الأمن فى الجزيرة العربية ، وامتدت الفتوح الى العراق والشام وفلسطين ومصر ، واطمأنت القوافل على هذه الطرق شرقا وغربا والى الشمال والجنوب ، اتسعت مواصلات التجارة العالمية

---

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٦١٣ ـ ٦١٤

فى تلك البقاع ــ لم يكن مورد فى العالم قط أعظم ولا أربح من هذا المورد الذى تهيأ لبيوت التجارة العريقة فى قريش ، ويكفى أن يسلم هذا المورد سنة فى كل سنتين أو ثلاث ليغنم منه التاجر الكبير ألوف الألوف ، ويأخذ من ربح سنة ما يعوض وقف التجارة سنوات .

والاسلام لا يمنع التجارة ، ولا ينكر الثروة ، ولكنه يمنع الترف ، وينكر كنز الذهب والفضة ، ويأمر بالانفاق فى المنافع والمرافق كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾ ، ويتقى أشد التقية أن يترف أناس ويعدم أناس آخرون .

وابتدأت الخلافة الأولى فى عهد الصديق ، ومشكلة الثروات الكبيرة مكبوحة الجماح مملوكة الزمام ، ثم أحس الخليفة الأول بزمامها يضطرب فى يديه بعد اتساع التجارة وامتداد الفتوح ، فاتخذ الحيطة لفتنتها ، واستبقى عنده كبار الصحابة ، ليجمع بين معونتهم له فى الرأى والعمل ، وبين تجنبهم الفتنة ومآزق الولاية .

ولم يكن عمر بحاجة الى التحذير من عواقب انطلاق الصحابة فى الأقطار ، بل ربما كان يحذرها حيث لم يحذرها صاحبه ، ولكن الصديق رضوان الله عليه لم ينس تحذيره فى موقف الأمانة فقال له وهو يجود بنفسه : « واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل امرىء منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله .. »[1] .

وقد دعا الأمر بعد قيام الفاروق بالخلافة الى مضاعفة الحيطة فى كل تدبير لجأ اليه الصديق على اتفاق مع صاحبه لاتقاء الفتنة ، ومصاحبة التغير الطارىء بالوسيلة التى تلائمه ، وجعل يشتد فى

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٦١٨ ــ ٦١٩

حيطته كلما تباعدت المسافة بين المجتمع الاسلامى فى أوائل عهد الدعوة ، وبين هذا المجتمع بعد افتتاح العراق وأقاليم فارس الغربية والشام ومصر الى حدود أفريقية الشمالية والسودان .

فمن سياسته فى ذلك أنه ثابر على استبقاء كبار الصحابة الى جواره فى المدينة ، وكان منهم من يسأله الخروج للغزو والجهاد فيثنيه عن ذلك ويلقى فى روعه معذرته المشهورة : « أن له فى غزوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكفيه ويبلغه .. وهو خير له من الغزو اليوم » ثم يقول له : « خير لك ألا ترى الدنيا ولا تراك »[1] .

وانتهج فى محاسبة الولاة خطة حاسمة لا هوادة فيها مع أحد من أحسن أو أساء .. فراقبهم جميعا أشد مراقبة ، واتخذ موسم الحج موعدا لمراجعتهم وسماع أخبار الرعية عنهم ، ومنهم من كان يعزله ويستدعيه اليه لغير جريرة يؤخذ بها الا أنه لا يريد — كما قال غير مرة — أن يحمل فضل عقله على الناس وأنه يخشى أن يفتتن الناس به ان لم يفتتن هو بالناس مع فتنة السلطان وفتنة النجاح .

ثم انتهت خلافة عمر والمجتمع الاسلامى مجتمعان !.. أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوته أن يحار فى تدبيره وأنه قضى وقد أوشكت قريش أن تمله ، لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها فى دنياها الجديدة ، وبين ماض ينصرم وحاضر يتقلب ويكاد أن ينهزم . ولكن الثقة به لم تضعف مع طوالع المجتمع الجديد ، بل زادته هذه الطوالع المتقلبة تمكينا على تمكين .. فهذه المغالبة لمحنة المجتمع الجديد ، وتلك الثقة بالفاروق ، وتلك القوة فيه ، قد حفظت زمام الدولة فى قبضة وليها ، ولم تذهب المخالفة له الى مدى أبعد مما سماه الشعبى بالملل . فلو لم تكن هناك ثقة مكينة لجاوز الأمر الملل الى السخط والتمرد .

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٦٢٠

● الفتح فى عهد عثمان :

امتدت الامبراطورية الاسلامية فى عهد عمر من أقصى فارس شرقا الى حدود برقة وطرابلس غربا ، ومن بحر قزوين فى الشمال الى بلاد النوبة فى الجنوب . وقد آمن ما فتحه المسلمون من بلاد هذه الامبراطورية بأن غزاتهم لا غالب لهم . مع ذلك كانت أسباب الانتقاض لا تفتأ الحين بعد الحين تحرك نفوس الناس من أهل هذه الأقاليم الى الثورة بالمسلمين ونكث ما عاهدوهم عليه . ولم يكن ذلك عجبا ، والفاتحون يخالفونهم فى الجنس واللغة والعقيدة .

ولم يكن عجبا كذلك أن تحرك عوامل الفتنة نفوس الناس فى البلاد المفتوحة ، وذلك بحكم موقفهم من المسلمين وموقف المسلمين منهم . فلم تكن للمسلمين قوات مرابطة فى هذه البلاد ، بل كانوا يصالحون كل اقليم يفتحونه على جزية يدفعها أهله لهم ، ثم يتركون حكم الاقليم لأبنائه ، وتنسحب قواتهم بعد ذلك عنه الى المعسكرات العربية . وكانت معظم هذه المعسكرات مركزة بالشام ، فى دمشق وفى حمص ، كما كانت مركزة بالعراق فى البصرة وفى الكوفة . أما فى مصر فلم يكن للعرب مسلحة قوية الا فى حصن بابليون ، حيث تقع مصر القديمة اليوم . لهذا حدث غير مرة فى عهد عمر نفسه أن انتفضت ولايات بعد اذعانها فمنعت الجزية وامتنعت عن العرب بحصونها ، فبعث اليها عمر من ردها الى الطاعة وأعادها الى الاذعان . لكنه لم يكن يترك من جنده بينها من يحفظ نظامها ويلزمها احترام عهدها ، لأن انفساح الامبراطورية السريع جعله فى حاجة الى تنقل هذه القوات من ميدان الى ميدان . ثم انه يخشى ان هو ترك قوات صغيرة فى الأقاليم المفتوحة أن يثور الناس بها وأن يتغلبوا عليها فيكون لذلك من سيء الأثر فى النفوس ما لا يحب . وهو الى هذا قد كان قادرا دائما أن يرد العصاة عن عصيانهم وأن ينزل بهم من العقاب ما يكون عبرة لغيرهم .

وكانت ولاية أذربيجان وما والاها من ناحية الغرب آخر ما أخضعه المسلمون من ولايات فارس فى عهد عمر . وتقع أذربيجان الى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، وهى بلاد جبلية ترتفع أرضها فوق سطح البحر نحو ألف وخمسمائة متر ، وبها قمم يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف من الأمتار . وكان بها معابد كثيرة للنار حين غزاها المسلمون . وقد أخضعها عتبة بن فرقد وصالح أهلها باذن حذيفة بن اليمان ، وأعطاهم كتابا بالأمان على سهلهم وجبلهم وشعائرهم ، وعلى أنفسهم وأموالهم وعقائدهم وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم .

وامتد الفتح من أذربيجان الى الباب والى موقان . فلما أخضعهما المسلمون تحول عبد الرحمن بن ربيعة عنهما يريد غزو الترك المجاورين لها فاعتصموا منه بالجبال . وانه ليعد للسير اليهم حيث اعتصموا منه اذ جاءت الأنباء بمقتل عمر فترك الترك لم يتعقبهم ، وأقام حيث كان ينتظر أوامر عثمان . ولما رأى أهل أذربيجان أن المسلمين رجعوا عن الغزو حين جاءهم النبأ بمقتل عمر ، دخل فى روعهم أن سياسة الخليفة الجديد تخالف سياسة سلفه ، ولذلك منعوا ما صالحوا عليه حذيفة بن اليمان . ولم يتردد عثمان حين عرف أمرهم أن بعث الوليد بن عقبة لغزوهم فغزاهم وردهم الى الطاعة والى أداء الجزية . ثم ان الوليد بعث عبد الله شبيل الأحمسى الى موقان والبير والطيلسان ، وكلها تجاور أذربيجان ، فغزاها[1] .

وتجاور أرمينية هذه البلاد التى تغلب عليها الوليد بن عقبة ومن سار تحت لوائه من الأمراء والجنود . وكانت أرمينية قبل خلافة عمر مقسمة بين الفرس والروم فى عهود أخرى . وكانت تمتد من شمشاط غربا الى تغلب ، والى بحر الخزر شرقا . فلما كانت خلافة عمر ، وأجلى المسلمون هرقل عن الشام ، واستولوا على أنطاقية وحمص وشمال

---

(١) محمد حسين هيكل : **عثمان بن عفان** . ص ٥٧ ـ ٥٩

الشام كله سار خالد بن الوليد فى بلاد أرمينية ؛ فغزا مرعش وششاط وما والاها من البلاد التى كانت فى حكم الروم ، وعاد منها الى الشام بالغنائم والأسلاب من غير أن يصالح أهلها على أمان أو جزية • وعلى أثر عودته ولاه عمر امارة قنسرين • فلما بعث الروم بعد ذلك بالجنود على السفن الى أنطاكية فاقتضت ، وانتقضت حمص وحلب وبلاد الشمال من أرض الشام ، أجلب المسلمون بخيلهم ورجلهم على هذه البلاد ، وحصروها وطردوا الروم منها ، ثم تجاوزها عياض بن غنم ، وخالد ابن الوليد الى أرمينية فساروا فيها حتى بلغ خالد آمد والرهاء • وكان خالد فى مسيرته يفتح البلاد ويستفىء الغنائم ويلقى فى القلوب الرعب• واجتمع له من الفىء شىء عظيم عاد به الى قنسرين من غير أن يعقد هو أو يعقد عياض صلحا مع أهل أرمينية على أمان أو جزية • وكذلك ظلت أرمينية وليس للمسلمين بها سلطان ، وان كانت قد ذاقت من بأسهم ما جعلها تتربص بهم الدوائر •

وتجمع الروايات على أن أذربيجان ثارت وأن أرمينية أرادت معاضدتها فأخضع المسلمون أذربيجان وما والاها وساروا فى أرمينية من جانب فارس ومن جانب الروم فاستولوا عليها • وقد حدث هذا كله فى أول خلافة عثمان ، فكان بالغ الأثر فى رد السكينة الى ربوع الشام وأقاليم فارس ، وفى اعادة اليقين الى أهل الأقاليم المفتوحة بأن مقتل عمر واستخلاف عثمان لم يوهن من بأس المسلمين ولم يضعف من شوكتهم •

يجب مع ذلك أن نقف وقفة قصيرة نذكر أثناءها ما حدث من خلاف على اقتسام الغنائم بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وما أدى اليه هذا الخلاف من تهديد هؤلاء وأولئك بعضهم لبعض • لقد حدث مثل هذا الخلاف فى عهد عمر ، لكنه لم يؤد الى أى تهديد •• ترى هل أذعن الروم بعد هزيمتهم فلم يفكروا فى مناجزة المسلمين ؟ هل كفاهم ما أصابهم بالشام وبأرمينية ليقنعوا بما بقى لهم فى الأناضول وفى البلقان وفى أفريقية ؟ لعلهم كانوا يفعلون لو لم يكونوا يعتزون بما لهم

على البحر من قوة ليس للعرب مثلها ، ولو لم تغرهم الاسكندرية بالوثوب اليها على متن المـاء ، وقد ظنوا أنهم قادرون على استرجاعها واسترجاع مصر منها .

فقد فتح عمرو بن العاص مصر ، وأجلى الروم عنها ، واستقرت له ولايتها فى عهد عمر . وكانت سياسـته فيها أن يتألف أهلهـا بتخفيف الضرائب وبتركهم أحرارا فى عقيدتهم ، وترك المناصب الادارية لأبناء البلاد وللروم الذين آثروا البقاء على الهجرة الى وطنهم الأول . على أن هذه السياسـة التى أرضت المصريين فى مجمـوعهم أغضبت أهـل الاسكندرية .. فقد كان لهؤلاء من الامتيازات قبـل الفتـح العربى ما أعفاهم من كثير من الضرائب . فلما سوى القائد العربى بينهم وبين غيرهم وفرض عليهم ما فرضـه على غيرهم ، أحفظ ذلك قلوبهم وهيـأ للروم الذين لم يغادروا الاسكندرية فرصة التأليب على المسلمين واثارة النفوس بحكمهم . ولم يدر بخلد عمرو أن يؤدى ما قد يحدث من ذلك الى فتنة أو انتقاض . لذلك أبقى للاسكندرية حصونها المنيعة ، ولم يبق بها من جنـده غير حامية لا تزيد عن الألف تحفظ النظام فيها وتفرض سـلطان المسلمين عليها .

فلما اسـتقر الأمر فى بلاد القسـطنطينية كاتب الروم المقيمـون بالاسكندرية عاهل بيزنطة وأوحوا اليه أنه قادر اذا بعث اليهم السـفن تحمل الجنـود من غير أن يفطن المسلمون الى ما يصنع ، أن يأخـذ المدينة على غرة ، وأن يتحصن بها ، ثم يسير منها الى أرجاء مصر فيعيد فتحها ، ويسـترد هذا الاقليم الغنى الذى أمتع بيزنطة بعد أن أمتع رومة بخيره الوفير .

ولم تبلغ هذه الأنباء عمرا لأن الروم كتموها ، ولأن ابن العاص كان فى شـغل عنها بما كان بينه وبين عمر من خلاف استفحل حتى اتهم عمر عمرا بأنه يفيـد لنفسـه من خراج مصر . ولذا بعث الى مصر محمد بن مسلمة يقاسمه ماله ، وكان عمر موشـكا أن يعزل عمرا لولا أنه قتل .

ولم يكن عثمان خيرا من عمر رأيا فى ابن العاص مما جعل عمرا يخشى أن يقدم عثمان على عمل يضعف من مركزه ، فزاده ذلك انصرافا عن التفكير فى أمر الاسكندرية ، فلم يبلغه شيء من أمر الروم وأفاعيلهم بها ، وبخاصة لأن الروم كتموا ذلك بشدة .

ولقد أرسل روم الاسكندرية الى الامبراطور « قنسطانز الثانى » يسألونه أن يخلصهم من حكم المسلمين ويهونون عليه الأمر بضعف مسلحة العرب فى الاسكندرية ، وبأنه صاحب البحر دون المسلمين ، فاذا بعث بالجنود فى السفن سرا فلم يفطن المسلمون له نزلت قواته عاصمة مصر فاستولت عليها واستولت منها على أقاليم مصر كلها . وراقت الفكرة قنسطانز وبلاطه وخيل اليهم أنهم متى عادوا الى مصر فملكوها لم يكن ما أصابهم بالشام شيئا مذكورا .. وكان لقنسطانز أبلغ العذر فى الاقتناع بهذا الرأى . فلم يكن للعرب الى يومئذ شراع واحد فى البحر الأبيض . وقد طلب معاوية بن أبى سفيان الى عمر بن الخطاب أن يجهز السفن لحراسة الشواطىء بالشام ومصر ولمواجهة الروم اذا حاولت سفنهم مواجهة هذه الشواطىء ، فأشفق ابن الخطاب مما طلب معاوية ، ولم يبح له أن يجهز السفن .

وجهز قنسطانز أسطولا من ثلثمائة سفينة أوقرها بالرجال ، ودفعها للغاية التى أرادها ، ولكنه أخفى على الناس مقصدها حتى يظل أمرها سرا مكتوما فلا يعرفه العرب . ونجح فى كيده ، فبلغ الأسطول الاسكندرية ونزل جنوده بها ، فتلقاهم الروم المقيمون فيها وانضموا اليهم وساروا معهم الى مسلحة العرب فقتلوا رجالها جميعا لم ينج منهم الا نفر قليل لاذوا بالفرار . واستقر القائد مانويل وجنوده بالعاصمة العظيمة ، وخيل اليهم أن مغامرتهم نجحت ، وأن جلاء المسلمين عن مصر أصبح أمرا مقدورا .

وكان نزول الروم الاسكندرية فى الأشهر الأولى من السنة الخامسة والعشرين للهجرة (٦٦٤ ميلادية) أى بعد عام وأشهر من بيعة عثمان .

وهذا تاريخ يكاد الرواة يجمعون عليه ،واجماعهم هذا يدل على أن مقتل عمر شجع بلاد القسطنطينية على المسارعة الى اجابة الروم من أهل الاسكندرية ، ظنا منهم أن وفاة الفاروق ستفت فى عضد المسلمين وتقضى على الفتح الاسلامى الذى سار فى عهده سيرة أذهلت الروم والفرس جميعا(١) .

ماذا صنع العرب حين بلغت أنباء الروم الفسطاط ؟ أتراهم خفوا للقائهم ووقفوا عن الزحف داخل البلاد ؟ أم تولتهم الخشية أن يهزمهم الروم فلزموا مكانهم حتى يأتيهم المدد من شبه الجزيرة ؟ تضطرب الروايات عن هذه الفترة كاضطرابها فى أمر عمرو بن العاص وبقائه بمصر أو ذهابه الى مكة . والثابت أن الروم أغاروا على ما جاور الاسكندرية من البلاد وسار جيشهم فى أرجاء مصر السفلى ينهب الأموال والمحصول من قراها ولا يدافعه مدافع . والظاهر أن العرب وقفوا من هذه الحوادث موقف الحيرة والاضطراب ، وأنهم استمدوا أمير المؤمنين بالمدينة الرأى وطلبوا اليه المعونة . وأجمع أهل الرأى بالمدينة كما أجمع المسلمون بمصر على أن الرجل الذى يستطيع مواجهة هذا الموقف الدقيق هو عمرو بن العاص دون سواه . فقد كان اسمه يبعث الرهبة فى نفوس الروم ، وكانت سياسته تلقى من أهل مصر الرضا والتأييد . لهذا عهد اليه عثمان أن يتولى قتال الروم فيجليهم عن مصر كما أجلاهم عنها أول مرة . والثابت أن عمرا لم يتردد فى تنفيذ ما أمره الخليفة به ، ولم يجد فيما أصابه من عمر ومن عثمان بعده ما يرده عن القيام بواجب مقدس هو الجهاد فى سبيل الله .

فلنقف مع عمرو وسايره من الفسطاط الى مقر القيادة بحصن بابليون . لقد كان عمرو يعرف أفاعيل جيش الروم ، وأنهم ساروا فى بلاد مصر السفلى يغنمون وينهبون ويتوفرون على الملذات ، وأن المصريين وقفوا من هؤلاء الغزاة القساة موقف الخوف والفزع ،

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٦٥ ــ ٦٦

لا يعترضونهم ولا يعاونهم من أهل البلاد الا قليلون • وقد رأى عمرو أن يترك الروم ينتشرون فى البلاد ويعيثون فيها فسادا فيزداد المصريون لهم بغضا •

وسار الروم فى أرجاء مصر السفلى لا يلقون أية مقاومة ، ولا يدعون المصريين مع ذلك وادعين ، بل يغصبونهم ما لهم ويوجهون اليهم شر ألوان المهانة • وفى هذه الأثناء كان عمرو بن العاص ينظم بابليون جنده ويعد للقتال عدته • فلما علم أن الروم اقتربوا من نقيوس خرج اليها وقد عقد العزم على لقائهم بها • خرج على رأس خمسة عشر ألفا مؤمنين بأنهم ان لم يهزموا الروم ارتدوا على أعقابهم الى شبه الجزيرة العربية يجللهم عار الفرار • والتقى الجيشان تحت أسوار حصن نقيوس على شاطىء النهر ، ولا يخامر الشك أى جندى من الروم أو من المسلمين فى أن مصير اليوم حاسم ، وأن أى الفريقين ظهر خلصت له مصر بخيراتها ونعيمها • لذلك اشتد القتال وحمى وطيسه واستمات الفريقان فيه فترجح النصر بينهما • ودار قتال عنيف بين الفريقين ، وكان المسلمون يندفعون يريدون الشهادة ويرون الجنة فتحت لهم أبوابها • ولم يصبر الروم لحملاتهم فتضعضع عزمهم ووهنت قوتهم ، فانهزموا مولين الأدبار لا يلوون على شىء يريدون الاسكندرية يلوذون بحصونها من الموت وهو ملاقيهم • وتعقبهم العرب وقد زادهم النصر قوة على قوتهم، ولم يبق لديهم ريب فى أن الله ناصرهم على عدوهم •

لم يجد المسلمون مشقة فى تعقب عدوهم ، ولم يقف سيرهم اقدام العدو على تدمير الجسور وتخريب الطرق • فقد عانى أقباط مصر من بطش الروم ونهبهم فى كل قرية مروا بها بعد نزولهم الاسكندرية مما أعاد الى ذاكرتهم ذلك الاضطهاد الدينى الذى خضعوا له قبل الفتح العربى سنوات حسوما ، كما ذكروا أن الفتح العربى هو الذى أنجاهم من ذلك الاضطهاد • فلما انهزم الروم بنقيوس وفروا يبتغون ملاذا بحصون الاسكندرية وحطموا وراءهم كل جسر وأفسدوا كل طريق ، هرع

القبط من أهل القرى حين رأوا العرب يتعقبون هؤلاء الطغاة ، فأصلحوا ما أفسده الروم وأمدوا العرب بما هم فى حاجة اليه من عدة ومؤونة ، مظهرين من الاغتباط بما أصاب الروم ما زاد العرب اطمئنانا الى غدهم ، وأنهم لن يؤتوا من خلفهم .

فر الروم الى السفن وهربوا فى البحر نجاة بأنفسهم . عند ذلك عادت الى الأسكندرية السكينة ، وعاد اليها من أهل مصر من كان قد فر منها لدخول الروم فيها .. وأعاد عمرو فتح الاسكندرية ، فتم بذلك جلاء الروم عن مصر للمرة الثانية ، وهم لما يمض بين نزولهم الاسكندرية وفرارهم منها فى هذه المرة غير أشهر . وفى هذه الفترة الوجيزة بلغ عمرو ما أراد ، واطمأن أهل مصر كرة أخرى الى عود المسلمين والى حكمهم . فقد ألفوا هذا الحكم من قبل وسكنوا الى عدله . وهم اليوم أشد رضا به وسكونا اليه بعد أن رأوا الروم ينهبون أموالهم ، ورأوا المسلمين يردون عليهم هذه الأموال بعد أن غنموها من الروم .

ولى عثمان عبد الله بن سعد مصر بعد عوده من غزو أفريقية فى السنة السادسة والعشرين للهجرة . فتح عبد الله بن سعد أفريقية ، وعاد الى مصر ، وقد اجتمع أهل أفريقية على الاسلام وحسنت طاعتهم . واكتفى المسلمون باجلاء الروم عن أفريقية ، ثم تركوها لأهلها بعد أن صالحهم عبد الله بن سعد على الجزية . وقد أسلم كثير من أهل البلاد ، كما أن البلاد وفت بما عاهدت عليه طيلة عهد عثمان وفى عهد على كذلك .

وامتدت الامبراطورية الاسلامية بفتح أفريقية واشتملت كل البلاد التى تشاطىء البحر المتوسط من أنطاقية فى شمال الشام ، وفى أقصى الشرق من ذلك البحر الى أقصى الغرب منه فى شمال أفريقية. وأيقن معاوية بالشام أن هذه الشواطىء الممتدة ألوف الأميال لا يمكن أن تأمن مفاجآت العدو من البحر الا أن يكون للعرب أسطول يواجه أسطول الروم اذا حاول العودة الى أى من هذه الأقاليم . كان

هـذا رأيه منـذ تولى الشـام وعرف مهاجمة الروم أنطاقية من البحر . لذلك كتب الى عمر يذكر له قرب جزيرة قبرص من حمص ، ولم يأذن له عمر كما قدمنـا . فلما تولى عثمان وهاجم الروم مصر من البحر ثم امتدت شـواطىء الامبراطورية حتى الشـمال الأفريقى كله ، أعاد معاوية الكرة على عثمان واسـتأذنه فى غزو قبرص من البحر . وخشى عثمان ان هو أذن أن يخالف مسـيرة عمر فينقض عهـده يوم بيعته ويؤاخذه الناس بمخالفته . لكنـه رأى فى طلب معاوية من حسن الرأى وبعـد النظر ما يكون الرفض معه من سـوء السياسة . لذلك كتب الى معاوية يقول : « لقد شـهدت ما رد عليك عمر حين استأمرته فى غزو البحر » . وأعاد معاوية عليـه القول فأجابه الى ما طلب ، لكنـه قال له : « تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه » . وكذلك جعل عثمان ركوب البحر والغزو فيـه تطوعا لمن يشاء ، فأمن مخالفة عمر فى سـيرته ، ولم يرفض أمرا اعتبره من حسن الرأى وبعـد النظر .

لم يلبث معاوية حين تناول كتـاب عثمان أن جهز السفن للقتال . وعرف عبد الله بن سعد أمر عثمان لمعاوية ، فجهز السفن فى مرفأ الاسكندرية وحمل عليها من تطوع للقتـال على متن المـاء . بذلك أصبح للمسلمين أسـطول لا يقل عن أسطول الروم بأسـا ، وأصبحت الدولة الاسلامية ولها الى جانب قوتها البرية قـوة بحرية على شـواطىء بحرى الروم والقلزم (البحر الأحمر) ، فيها من غناء القتـال وعـدته ما لم يكن للعرب به عهـد من قبـل .

كان معاوية على حـق فيما أشار به من بناء الأسطول وغزو قبرص واتخاذ قواعـد فى البحر لحماية الامبراطورية الناشئة . فقـد كانت الامبراطورية تزداد على الأيام سعة ، وتزداد شواطئها امتـدادا . ولم يكن قـد بقى للروم من وسيلة للعود اليها الا من البحر . فاذا أيقنوا أن أسـطولهم سـيلقى من بأس أسطول المسلمين ما يلقى جنـودهم

فى الميادين من بأس جند العرب فت ذلك فى ساعدهم وفتح أمام المسلمين أبواب التوسع الى أقصى ما تمكنهم منه قوتهم وجيوشهم . ولعل عمر لو استطال به العمر وامتدت فى عهده شواطىء الفتح كان ينتهى الى الرأى الذى انتهى اليه عثمان . وقد كانت مشورة عثمان للتطوع للغزو فى البحر مشورة موفقة لم تفتح باب الخلاف ولم تترك لمعترض سبيلا . لذا أسرع ببناء الأسطول الاسلامى فى الشام وفى مصر ، وأقبل المتطوعون عليه بأكثر مما توقع عثمان وتوقع معاوية ، وأصبحت الدولة الاسلامية فى زمن وجيز دولة بحرية مرهوبة الجانب ، ثم صار الأسطول أداة جوهرية فى امتداد الفتح وفى تقوية كيان الامبراطورية من بعد .

ركب معاوية بن أبى سفيان الى قبرص ، وسارت سفينته فى الطليعة وسارت من خلفها السفن عليها متطوعة المسلمين . فلما بلغوا قبرص وارتقوا الى ساحلها لم ير حاكمها ولا رأى أهلها قتالهم . وما لهم يقاتلونهم والجزيرة فى حكم الروم ، فاذا لم يدفع الروم عنها لم تستطع هى الدفاع عن نفسها . ولم تتصد للمسلمين سفينة من سفن الروم ولم تحاول منعهم عن مقصدهم . وتفاوض الفريقان فى الصلح ، ورأى أهل قبرص ألا يعرضهم صلحهم مع المسلمين الى خلاف مع الروم قد يجر عليهم أذى لا قبل لهم بدفعه . لهذا صالحوا المسلمين على جزية سبعة آلاف ومائتى دينار يؤدونها لهم كل عام ، على شريطة أن يؤدوا للروم مثلها . وفى مقابل هذا الصلح المزدوج مع الروم ومع المسلمين جميعا لا يمنعهم المسلمون ولا يقاتلون عنهم من أرادهم من ورائهم ، ويكون أهل قبرص عيونا للمسلمين يؤذنونهم بسير عدوهم من الروم .

أيقن الروم بعد استيلاء المسلمين على قبرص ، وبعد أن أصبح لهم أسطول يدافع عن شواطىء الشام وافريقية ، أنهم لن يستطيعوا العود الى مصر وافريقية ، ولن يستطيعوا مناهضة المسلمين فى الشام ،

ما لم يحطموا أسطول المسلمين لتعود لهم سيادة البحر • ولن يتسنى ذلك لهم اذا تركوا المسلمين ينمون أسطولهم وتزداد كفاية ملاحيهم ، لذلك عزموا غزوهم فى البحر وتحطيم أسطولهم • وكانوا مطمئنين الى مقدرتهم على الظفر بهذا الأسطول لأن سفنهم كانت أكثر من سفن المسلمين عددا ، ولأن ملاحيهم كانوا أكثر من ملاحى المسلمين براعة •

كان ذلك عام واحد وثلاثين للهجرة أو أربع وثلاثين • وتنفيذا لعزمهم اجتمع الروم الى قسطنطين بن هرقل وقد تولى قيادة خمسمائة أو ستمائة من السفن أطلقت شراعها تشق عباب البحر المتوسط الى الاسكندرية تلقى فيها أسطول المسلمين الأكبر • وعرف المسلمون نبأ الروم وسيرهم لقتالهم ، فتولى عبد الله بن سعد والى مصر قيادة أسطول الاسكندرية وافريقية وعدته مائتا سفينة شحنها بالشجعان المجربين ذوى البأس فى الحرب • وتقدمت سفن المسلمين وسفن الروم وأنشبوا القتال عنيفا غاية العنف بدرجة أن تداخلت سفن الأسطولين واستخدمت السيوف والخناجر فى القتال ، ودفعت الأمواج سفن الأسطولين الى الشاطىء فكان القتلى يهوون الى رماله تغمرهم المياه ثم تنحسر عنهم وقد خالطتها الدماء • وحمى الوطيس وأبلى كل من المسلمين والروم أحسن البلاء ، وأصابت قسطنطين جراحات أوهنت قوته وأضعفت عزمه ، ولما رأى المسلمين لا يهن لهم عزم أيقن أن الدائرة لهم عليه فولى مدبرا بها بقى من أسطوله ورجاله وقد أيقن أن بأس المسلمين فى البحر لا يقل عن بأسهم فى البر ، وأنهم لا غالب لهم •

رأى عبد الله بن سعد فرار عدوه فلم يتعقبه ، بل أمر الأسطول بالمقام فى مكان الموقعة وبقى هناك أياما حتى استراح الناس ثم قفل راجعا الى مرفأ الاسكندرية • وقد طعن عليه خصومه وخصوم عثمان بما فعل من ذلك ، وأذاعوا فى الناس أنه لو تعقب أسطول الروم لقضى عليه القضاء الأخير ، ولسوغ هذا القضاء ، ولو الى حد ، ما أصاب المسلمين من خسائر فادحة فى الرجال • أما ولم يفعل بل

ترك عـدوه يولى الأدبار ، فحق على عثمان أن يعزله • لكن عثمان لن يفعل وابن سـعد أخوه فى الرضـاع ، وعثمان هو الذى استوهب دمه من النبى يوم فتح مكة بعـد أن أهـدر النبى هـذا الدم الفاسـد المفسـد • وانطلقت الألسـنة فى عثمان وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقـون به •

بينما كان الروم يحاولون غزو الشـام واسترداد مصر وافريقية ، ويسيرون لتدمير أسـطول المسلمين فيلقاهم المسـلمون ويردونهم على أعقابهم فى كل مكان ، ويدمرون أسـطولهم ، كانت ولايات فارس يثور بعضها الحين بعد الحين فيلزمها المسلمون الطاعة ويندفعون الى ما وراءها من أرض آسـيا • وقد رأينـا كيف صالحت أذربيجان المسلمين فى آخر عهـد عمر ، فلمـا اسـتخلف عثمان منعت ما كانت صالحت عليه ، فسار اليها الوليد بن عقبة فأخضعها على مثل صلحها الأول ، كما رأينا ما حدث فى أرمينية وكيف أعان عليـه الروم فكان ذلك داعيا الى اشـتباكهم بالمسلمين وانتصار المسلمين عليهم •

ثم ان القبـائل التى سـكنت البصرة والكوفة كانت لا تفتأ تظهر البرم بسلطان قريش ، ويذكر بنوها أن الفتـح فى فارس تم بأيديهم ، فليس لقريش حـق فى التسلط عليهم • وكانت أنباء ذلك تصـل الى الفرس فى شتى الولايات فكانت تشجعهم على الثورة والانتقاض الحين بعـد الحين •

كانت هذه العوامل تتحرك فى عهد عمر ، لكنها كانت أشد بروزا فى عهـد عثمان • حدث انتقاض الكثير من ولايات فارس سنة ثلاثين من الهجرة • والتقى المسلمون والفرس فى مواقع عدة ودار بين الفريقين قتـال يذكرنا بالغزوات الكبرى • وقـد ظفر الفرس بالمسلمين فى بعض هـذه المواقع ، وان كان ذلك نادرا ، بينما كان المسلمون تساير أعلامهم النصر فى مختلف الأرجاء من أرض فارس • وأخيرا استتب الأمر للمسلمين

فى فارس كما استتب لهم فى افريقيـة ، فلم يلقوا الى آخر خلافة عثمان محنـة تذكر .

وقد كان لحكومة عثمان أثر فى اطراد الفتح واستقراره . وكان لها أثر كذلك فى تشـجيع العوامل التى انتهت الى مقتل الخليفـة . وسنرى هذا الأثر عنـد الحديث عن حكومة عثمان واتجاهات الرأى فى عهـده .

● حـكومة عثمـان :

كانت خلافة عثمان أصعب خلافة تولاها خليفـة قط فى صـدر الاسلام .. فلقد ابتلى عثمان فى أول خلافته بما يشـبه ثورة المرتدين فى أول خلافة الصـديق ، بل ويزيد عليـه : الخلاف فى الداخل والتغير فى الدواعى النفسية ، وهو أخطر المصاعب جميعا فى خلافة عثمان .

كانت هيبة عمر تملأ الجزيرة العربية وما حولها ، وكان أصحاب الدولتين الكبيرتين من الروم والفرس أهيب له من رعيته فى الجزيرة ، لأن هـذه الرعيـة تعتصم من هيبته بحـق يعرفه لها وتعرفه لنفسها ، ولم تكن للروم والفرس عصمة من هيبته الا بالحـذر والدسيسـة .. فما هو الا أن ذاع فى ساحات المشرق والمغرب مقتل عمر ، حتى تلاحقت الثورات والفتن كأنها كانت على موعـد ، وتمرد من قبائل الفرس والترك والروم من كان قـد أذعن وتعاقد مع قادة الحرب على الصلح والطاعة ، ونقضت دولة الروم صلحها ، فأغارت على الاسـكندرية برا وبحرا ، وأرسلت أسـاطيلها الى شـواطىء فلسطين ، وأطلقت فى الميادين خفية من يبث فيها الوعـد والوعيـد ، ويغرى المطيـع بالعصيان . وأحصى المؤرخون عـدة السـفن والجيوش التى اشتركت فى حركات الثـورة والانتقاض ، فقيل انها جاوزت خمسمائة سـفينة ومائة ألف مقاتل . وسرعان ما تسـايرت الأنباء بين الخزر والأرمن ومن ورائهم من الشعوب

الآسيوية ، فهبوا يتعللون بالذرائع لنقض الصلح ، وينتهزون الفرصة التى علموا أنها لا تسنح مرة أخرى اذا استكانوا للطاعة والمسالمة .

ولقد درج العاذرون واللائمون فى تاريخ عثمان على التسليم بضعفه كأنه حالة لا تفارقه فى جميع أعماله ، أو كأنه حالة لم تفارقه قط فى عمل مما تولاه . فلا تكونن كلمة الضعف حاضرة فى الذهن كلما حضرته حادثة من حوادث سيرته أو آية من آيات عزمه وتدبيره ، وليكن للضعف محله ، فلا يشغل كل محل فى معارض هذا التاريخ العجاب .

ان علاج عثمان لمشكلات الدولة « الخارجية » التى فاجأته بعد ولايته قد كان كأحسن علاج يتولاه خليفة فى تلك الآونة : عزم وسداد وسرعة ، مع الحيطة والأناة والرفق فى سياسة الأولياء والخصوم .

ولا شك أن الخليفة كان معانا على عمله ، ولم يكن منفردا بعبئه فى تلك المحنة الجائحة .. كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حمية الدين التى حفزت دعاة الاسلام من نصر الى نصر ، ومن عزيمة الى عزيمة ، وصحبتهم من بدر الى القادسية وتبوك وبابليون ، صامدة على سمعتها كأقوى وأقوم ما كانت فى يوم من أيامها ، بل لعلها فى حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها فى الجزيرة العربية .

ولم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفى فيها التسكين ، أو قمعها حيث تحتاج الى القمع فى بلاد الطغاة والمتجبرين ، فصالح من صالح ، وحارب ، ثم أمر قواده بمجاوزة البلاد التى نشبت فيها الثورات الى ما وراءها ، فتقدمت جنوده شرقا الى الهند والصين ، وشمالا الى ما وراء بحر الخزر ، وغربا الى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس ، وجنوبا الى السودان وجوانب الحبشة . ولم يؤخذ عليه قط وناء فى انفاذ نجدة أو تيسير مدد أو تدارك خطر فى أوانه ، من أقصى تلك البقاع الى أقصاها .

وعرضت له مسألة عسيرة من المسائل التى استطاع الفاروق عمر ارجاءها ، ولم يكن ثمة بد من عودتها فى أوانها .. عرضت له غزوة قبرص ورودس وجزر بحر الروم ، واعداد العدة لدفع الغارات البحرية عن شواطىء مصر والشام والقيروان ، فكانت بحق مشكلة من المشكلات التى لم تستحكم قبل أيامه ، ولم تتطلب الحل السريع من ولى الأمر المسلمين فى الجزيرة العربية ، أو فى البقاع التى انتهت اليها الفتوح .

وكان من سياسة عمر ألا يجعل بينه وبين جيش من المجاهدين بحرا ولا جسرا ولا قنطرة ، وأن يجنبهم ركوب البحر ما استطاع . وكان معاوية يلح عليه فى غزوة الروم بحرا ويهون عليه من أمر هذه الغزوات، ولكن عمر رفض .

ونظرة عثمان فى هذه المشكلة من أدل أعماله على نصيبه من الاجتهاد ومن الاقتداء ، ومن أدل الأمور على اقدامه حيث يحجم من هم أشهر منه بالاقدام .. وعسير أن يمنع غزو البحر ، وعسير مثله أن يباح . فخرج عثمان من العسرين خير مخرج — كما أسلفنا — اذ كتب معاوية يأذن له بركوب البحر ويشترط عليه ألا ينتخب الناس ولا يقترع بينهم ، وأن يخيرهم . وعلى هذا الشرط غزا عبد الله بن قيس الجاسى قائد الأسطول خمسين غزاة بين شاتية وصائفة ، فى البر والبحر ، ولم يغرق أحد ولم ينكب[1] .

وكانت هذه الهمة من عثمان فى علاج الأخطار الخارجية حلا نافعا فى شئون الدولة الداخلية الى حين ، لأن مدافعة الأخطار من الخارج شغلت الناس زمنا عن شواغل السلم والدعة التى تجعلهم يركنون الى الاسترخاء والنقاش والجدال فيما يعنيهم أو لا يعنيهم ..

وقضى للخليفة الثالث ، باتساع دولته ودرء الأعداء عنها ، أن

---

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٦٤٩ — ٦٥٠

يتولى أصعب خلافة فى صدر الاسلام . كانت ثورة الفرس والروم والخزر والترك أول صدمة تلقاها ، وأكبر بها من صدمة يتلقاها صاحب دولة فى أول حكمه ، ولكنه ظفر بها ، وجاوزها بالدولة سليمة منيعة ، فأسلمه الظفر الى الصدمة الكبرى وهى صدمة الزلازل النفسية التى امتحن بها رعاياه فى بحبوحة السلم والرخاء ، وكانت كلها طورا جديدا فى حياة أولئك الرعايا .

ولقد كانت سياسة أبى بكر وعمر أن يستبقيا العلية عندهما ، ويرسلا الجند والقادة على قدر الى ميادين الجهاد .. أما عثمان فان سياسته قد اختلفت باختلاف الأحوال : فقد كانت ترمى الى اطلاق العلية فى الآفاق ، ارضاء لهم ، وتوسلا بمقامهم بين الدهماء فى كل قطر الى تسديد النصيحة وحسن القيادة واتقاء الفوضى ، وهو اجتهاد منه ، ولا ريب جانبه من الصواب .

وعزت عليه الطمأنينة الى الولاة مع الفراغ للدنيا بعد الجهاد ، فاختار للولاية أناسا من ذوى قرابته سبقت لهم ولاية فى عهد الخليفتين السابقين ، عسى أن يصدقوه العون بحكم القرابة ، ان لم يصدقوه العون خالصا لوجه الله . ولما اضطر الى هذه الخطة حاسب ضميره فعمل على تدارك الضرر منها ، فذلك حين وفد الوفود لكل مصر من الأمصار عليه وال من ولاته الأقربين ، فهم يعيشون فى أمصارهم ، ويحضر منهم من يشاء فى موسم الحج ، ليرجع اليه بما يراه موضعا للمراجعة من أحوال مصره ، وهذه خطته التى آثرها للطمأنينة الى ولاته والطمأنينة على رعاياه .

وكانت له « سياسة اقتصادية » يلاحظ فيها تدبير المرافق العامة ، وتيسير التجارة والعمارة ، ومنها اصلاح ميناء جدة ، وتمهيد الطرق ، واقامة الشرطة فى المخافر ، وتنظيم الأسواق .

ومهما يقل القائلون عن ترخصه فى العطاء وبذل الرواتب من بيت

المـال ، فلا قول لأحد فى حرمة الحياة عنده ، حتى فيما يخشى منه الجور على حيـاته ، فما طاوعه ضميره قط على ايقاع حكم الموت بانسـان ممن استحقوا هـذا الحكم بالشغب والعصيان ومن لامه فى هذا الباب فانما يلومه لأنه أفرط فى الرحمة والأناة ، ولا يلومه لأنه قسـا فضـلا عن الافراط فى القسوة .

● **الامام او مصحف عثمـان :**

ينفرد اليوم بين أعمال عثمان عمل جليـل يوازنها جميعا ، يذكر باسـمه حيث يذكر المصحف الشريف ويعلمه من يعلم أن المصـحف « العثمانى » منسـوب اليه .

فقليل من الناس يعلمون اليوم أنباء الفتوح التى فتحها عثمان ، وأنباء الغـارات التى ردها عثمـان ، ومنها ما تلتبس فيـه أسـانيد المؤرخين .. أما عمل عثمان فى المصحف فهو ماثل معلوم يقرأ المصحف وحيث يقال : هذا مصحف عثمان . وكل مصحف اليوم هو مصحف عثمان ، فلم تكن كلمة «المصحف» نفسها معروفة علما على الكتاب الذى يجمع آى الذكر الحكيم والقرآن الكريم . فعرف « المصحف » تارة و «الامام» تارة منذ سـميا باسميهما فى أوائل خلافة عثمان .

جمع القرآن الكريم فى حيـاة النبى عليه السـلام بعد أن كان مفرقا فى جريد النخل وصفائح الحجارة والعظام والجلود والرقاع ، ولم يرتب يومئذ على حسب السـور والموضـوعات .. فلما كانت أيام أبى بكر قال عمر : ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمـامة يتهافتون تهافت الفراش ، وانى أخشى ألا يشهدوا موطنـا الا فعلوا ذلك وهم حفظـة القرآن .. فهلا جمعته وكتبته ؟.. فنفر أبو بكر أن يفعل ما لم يفعل رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أرسـل أبو بكر الى كاتب الوحى « زيد بن ثابت » فقال له مشيرا الى عمر : « ان هـذا قد دعانى الى أمر فأبيت عليـه ، وأنت كاتب الوحى ، فان تكن معـه

اتبعتكما ، وان توافقنى لا أفعل » وتراجعا فى الأمر حتى قال عمر : « وما عليكما لو فعلتما ذلك » ؟ فنظرا مليا ثم قالا : « لا شيء » !

فجمعت الآيات ، وروجع الحفاظ فى كل آية ، ولم يشغلوا يومئذ بنسخ ما جمعوه وارسال النسخ الى الأمصار ، لأنهم تتبعوا الآيات لجمعها ، لا لمخافة الاختلاف فى قراءتها .

ثم حدث هذا الاختلاف بعد تفرق المسلمين فى الأمصار على أيام عثمان ، وبلغ من ذلك أن المعلمين والصبية كانوا يقتتلون فى المكاتب ، لأن الصبية يرجعون الى آبائهم فيسمعون منهم غير ما سمعوه من معلميهم ، وعاد حذيفة بن اليمان من قتال أرمينية فلم يدخل بيته حتى أتى الخليفة فقال له : « أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا فى الكتاب » . فلم يتوان عثمان بقية يومه ، وأرسل الى السيدة حفصة يطلب النسخة التى أودعها أبوها عندها قبل وفاته وقبل أن ينتخب الخليفة من بعده ، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها ، ثم عارضها على ما يحفظه وهو يحفظ القرآن كله ، وعارضها على ما يحفظه سائر الصحابة ، فخلصت له النسخة المتفق على قراءتها وترتيب آياتها . فلم يحجم بعد ذلك عن أمر كان غيره خليقا أن يهابه[1] .

أمر عثمان بعد حصول هذه النسخة لديه فأباد كل ما عداها احراقا ومحوا ، وأخذ الصفائح والرقاع والجلود التى لم تختلف ولم تجتمع على ترتيب فدفنها بين القبر والمنبر ، وأرسل من « المصحف » كما جمعه نسخا الى الأمصار يعتمدونها ولا يقرأون فى غيرها .

عمل من أخلق الأعمال أن يوصف بأنه « عمل عثمانى » فى الاقدام عليه وفى أثره .. فهذه الجرأة أحق شيء أن يلتفت اليه من كانوا

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٦٦٩ — ٦٧١ .

يحسبون أن سنة الرحمة تحجب الشجاعة وتثنى صاحبها عن تبعته اذا آمن بها .

وهذا العمل ـ فى اختلاف تقديره وأثره ـ مثال من أعمال عثمان كافة ، اذ كان معدودا عليه من أكبر السيئات ، ولم تبق لعثمان حسنة أعظم منه فى تاريخ الاسلام .

● **النهاية :**

كانت الكوفة موطن الثورة الأساسى فى خلافة عثمان ، فكثيرا ما أظهر أبناؤها تذمرهم على أمرائهم وولاتهم .. فسخطوا على سعد ابن أبى وقاص ، ثم اتهموا الوليد بن عقبة بشرب الخمر ، فولى عثمان سعيد بن العاص . وأخذ سعيد يدرس أحوال الكوفة وأهواء أهلها ليتبين مواطن الداء . ولما وقف على حقيقة الحال فيها كتب الى عثمان بما شاهده فى هذه المدينة ، فقال : « ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب على أهل الشرف والبيوتات منهم ، والغالب على تلك البلاد روادف قدمت ، وأعراب لحقت ، حتى لا ينظر الى ذى شرف أو بلاء من نابتها أو نازلتها » . فبعث عثمان الى سعيد بن العاص يطلب اليه أن يقدم الصحابة على غيرهم من سكان الكوفة .

كذلك ألقى عثمان على أهل المدينة خطبة ، أخبرهم فيها بما وصله عن الحالة فى الكوفة وحذرهم الفتنة ، وعرض عليهم أن ينقل الى الناس فيئهم حيث يقيمون فى بلاد العرب ، فرحب أهل المدينة أهل المدينة بذلك وقالوا له : كيف تنقل الينا ما أفاء الله علينا من الأرض ؟ فقال عثمان : « نبيعها ممن شاء بما كان بالحجاز واليمن وغيرهما من البلاد » . وأظهروا ابتهاجهم وفتح الله لهم أمرا لم يكن فى حسابهم .

كان هناك فريق من المسلمين يملك كثيرا من المال بالحجاز ، فاشتروا بهذا المال أرضا فى بلاد العراق التى اشتهرت بالخصب

والثراء ، وأصبح عـدد كبير منهم من كبار الأثرياء ، مما أدى الى تذمر العرب الذين كانوا يقيمون فى أمصـار العراق ، وازداد سخطهم على عثمان وولاته لحرمانهم من الفيء والغنـائم وطالبوا الخليفة بألا يعطى من الفيء الا الذين قاتلوا عليـه • كما أن كثيرا من سكان الأمصار الاسـلامية أظهروا عـدم ارتياحهم لسياسة عثمان •

أخذت بعض الشخصيات تثير السـخط فى نفوس أهـل هـذه الأمصار •• ومن الشـخصيات التى عارضت سـياسة عثمان أبو ذر الغفارى ــ أحـد كبار أئمة الحديث ــ الذى دعا الى اصـلاح أحوال المسلمين وتخفيف الفروق بين الأغنياء والفقراء • ذلك أن العرب الذين نزحوا الى الولايات المفتوحة حصلوا على ثروات كبيرة ، فى حين كان الى جوارهم بعض المسلمين يحيون حيـاة أقرب الى الفـاقة منها الى التقشف • وصار أبو ذر ينكر على عثمان سـياسته فى التولية والعزل • فلمـا أمره عثمان بالرحيـل الى الشـام ، رحل اليها وأخذ يقول هناك ما قاله فى المدينـة • ولمـا خشى معاوية على أهل الشـام من دعـوة أبى ذر وكثرت شكايات الأغنياء مما يلقون من الفقراء ، كتب يشـكو منه الى عثمان فأمر عثمان بانفاذه اليه ، ثم أذن له بعـد قـدومه الى المدينة بالاقامة فى الربذة (قرية صغيرة على مقربة من المدينة) ، وصـار يجرى عليـه العطاء حتى مات •

رأى عثمان ازاء الدعايات السـيئة فى الأمصار الاسلامية ضـد سـياسته أن يبعث فى طلب ولاته فى هـذه الأمصار فى موسـم الحج سـنة ٣٤ هـ ليكشـفوا له عن أسـباب الفتنة ، فلما اجتمع شـملهم فى الموسـم عرض عليهم الموقف واستمع الى آرائهم ، ثم عاد الى المدينة بعد ذلك ، وعقد مجلسـا آخر ضم كبار الصحابة وتشاوروا فى الموقف ، وانفض جمعهم وهم راضـون •

أخـذت الأمصار تحذو الكوفة فى التعبير عن استيائها من سياسة

عثمان وسياسة عماله ، فأقبل الى المدينة فى رجب ٣٥ هـ وفد كبير أهل العرب فى مصر ، وكانوا قد كاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافدوا بالمدينة • وأظهروا أنهم يريدون أن يسألوا عثمان عن أشياء لتطير فى الناس ولتحق عليه • فأرسل عثمان رجلين ليقفا على سبب مجيئهم الى المدينة ، فلما التقيا بهم قالوا لهما : نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها فى قلوب الناس ، ثم نرجع اليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها ، فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به ، فنخلعه ، فان أبى قتلناه • ثم عاد الرجلان الى عثمان وأخبراه بما سمعاه عن هؤلاء القوم ، فضحك وقال : « اللهم سلم هؤلاء ، فانك ان لم تسلمهم شقوا » •

دعا عثمان الى صلاة جامعة ، ووقف عثمان خطيبا فى الجميع بما فيهم الصحابة • وأخبرهم خبر القوم ، ثم قام الرجلان اللذان كان عثمان قد بعثهما للوقوف على حقيقة أغراض الوافدين الى المدينة ، فقالا لعثمان : « اقتلهم ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من دعا الى نفسه أو الى أحد وعلى الناس امام فعليه لعنة الله ، فاقتلوه » فقال عثمان : « بل نعفو ونقيل ونبصرهم بجدنا ، ولا نحاد أحدا حتى يركب حدا أو يبدى كفرا ، ان هؤلاء ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذى علمتم الا أنهم زعموا أنهم يذاكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم » • ثم أخذ عثمان يسوق ما اتهمه به هؤلاء الثوار ويدافع عن نفسه فيرد الاتهام عنه • واستمع المسلمون الذين شهدوا هذا الاجتماع بالمسجد الى دفاع عثمان عن سياسته ورأوا أن يقتل عثمان كل من رفع لواء العصيان والثورة • غير أن عثمان آثر العفو عنهم ليعودوا الى بلادهم • ولا غرو ، فقد كان العفو والتسامح من أبرز صفات عثمان •

عاد أهل مصر الى بلدهم ، لكنهم ما لبثوا أن أقبلوا الى المدينة فى شوال من هذه السنة ، وخرج فى نفس الوقت جموع من الكوفة

والبصرة ، وظهروا أنهم يريدون الحج حتى لا يتعرض لهم أحد • فلما جاءوا المدينة رأوا عليا وطلحة والزبير • فعرض وفد مصر على على بن أبي طالب أن يبايعوه فأبى وأمرهم بالانصراف عنه ، وقدم وفد البصرة على طلحة فصدهم عنه ، وقدم وفد الكوفة على الزبير فخيب ظنهم •
تظاهرت وفود الأمصار الثائرة بالعودة الى بلادهم حتى يفترق أهل المدينة ، لكنهم ما لبثوا أن كروا راجعين ، وفوجئ أهل المدينة بهؤلاء الثوار مكبرين في أرجاء بلدهم وضربوا حصارا حول دار عثمان وأعلنوا أن من كف يده فهو آمن ، فلزم الناس بيوتهم •

لما تحقق عثمان من خطورة الحالة بالمدينة ورأى نفسه عاجزا عن اخماد حركة الثوار ، بعث يكتب الى الأمصار يطلب فيها المدد والنجدة • وعلى الرغم من وجود الثوار بالمدينة ، فان عثمان ظل فترة يخرج الى المسجد يصلي بالناس كما كان يصلي بهم من قبل • فقصد المسجد ذات يوم ، ثم جلس على المنبر ووجه حديثه الى الثوار بقوله : « يا هؤلاء المعدى ، الله الله ، فوالله ان أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فامحوا الخطايا بالصواب ، فان الله عز وجل لا يمحو السيء الا بالحسن » • فقام محمد بن مسلمة وقال : « أنا أشهد بذلك » ، وتصدى له حكيم بن جبلة وأرغمه على السكوت والقعود • ثم قام زيد بن ثابت وطلب الاطلاع على الكتاب الذى زعم الثوار أن عثمان كتبه وبعث به الى وليه على مصر لقتل الثوار ، لكن الثوار سرعان ما هبوا في وجهه وثارت ثائرتهم • فحصبوا الناس حتى اضطروهم الى الخروج من المسجد ، ثم تحولوا الى عثمان فحصبوه حتى سقط من فوق المنبر مغشيا عليه ، فحمله بعض المسلمين الى داره •

ولما أفاق من وعكته ، خرج الى المسجد يصلي بالناس ، واستتر على ذلك حوالى شهر ، حتى حال الثوار بينه وبين الخروج الى المسجد • ثم بعث الثوار الى عثمان برسالة جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم . فالله الله ، ثم الله الله ، فانك على دنيا ، فاستتم اليها معها آخرة ، ولا تلبس نصيبك من الآخرة ، فلا تسوغ لك الدنيا ، واعلم أنا والله لله نغضب ، وفى الله نرضى ، وانا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة .. » وما لبث الثوار أن أعادوا الكرة على عثمان ، فبعثوا اليه وفدا وعاتبه على كتابه الى واليه بمصر ، فنفى عثمان صدور هذا الكتاب عنه ، فقال له أعضاء الوفد : اعزل عنا عمالك الفساق ، واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا . فأجابهم عثمان بقوله : ما أرانى اذا فى شىء ان كنت أستعمل من هويتهم ، وأعزل من كرهتم ، الأمر اذا أمركم ! فقالوا : والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن ، فانظر لنفسك أو دع . فأبى عليهم وقال : لم أكن لأخلع سربالا سربانيه الله .

وهكذا أراد الثوار حسم الأمر ، فخيروا عثمان بين أن يمحو مظالمهم أو ينزل عن الخلافة والا قتلوه . فأبى عثمان تحقيق الأمرين الأول والثانى . وكان الثوار قد طالت بهم الاقامة فى المدينة وأرادوا أن يحققوا ما قدموا من أجله ، ومن ثم أخذوا يشددون الحصار على عثمان ليرغمه على النزول عن الخلافة .

طال حصار الثوار لدار عثمان ، وساءت معاملتهم له ، فمنعوه من الخروج والصلاة فى مسجد النبى ، وحالوا دون وصول الماء اليه . وقيل ان الحصار استمر أربعين يوما . وكان عثمان من حين لآخر يحذر الثائرين الفتنة ويذكرهم بآيات الله ، فلا يحفلون به . وبينما هو على هذه الحال ، اذ دعاه رجل من الصحابة يدعى نيار بن عياض الأسلمى أن يخلع نفسه ، فرماه كثير بن الصلت الكندى — أحد الذين كانوا يدافعون عن عثمان — بسهم فأصاب منه مقتلا . فطلب الثوار من عثمان أن يسلمهم قاتل ابن عياض ، فأبى عثمان أن يسلمه لهم وقال : « لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى » . ولم يلبث الثوار أن أقدموا على مهاجمة دار عثمان وأشعلوا النار فى بابها والسقيفة التى عليه . فخرج اليهم أصحاب عثمان يقاتلونهم ويصدونهم عن الدار . ودار بين الفريقين قتال عنيف ، أصيب فيه كثير من أنصار

عثمان بجراح وقتل آخرون. ولم يكتف الثوار بذلك، بل أخذوا يتسللون الى دار عثمان ، فوجدوا عثمان يقرأ فى المصحف سورة البقرة . وتقدمهم محمد بن أبى بكر الذى أمسك بلحية عثمان وقال له : « قد أخزاك الله يا نعثل » ! (ونعثل هذا كان رجلا يهوديا من أهل المدينة يشبه عثمان فى طول وكثافة لحيته) ، فاستاء عثمان من فعله وقال له : « لست بنعثل ولكن عبد الله أمير المؤمنين » ، واستمر ابن أبى بكر يجذب لحية عثمان وهو يقول لعثمان : « ما أغنى عنك معاوية ، ما أغنى عنك بن عامر ، ما أغنت عنك كتبك » ؟ فقال له عثمان : « يا ابن أخى دع عنك لحيتى ، ما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه » ، فرد عليه ابن أبى بكر بقوله : « لو رآك أبى تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك ، وما أريد بك أشد من قبضى على لحيتك » . فقال عثمان فى صبر وجلد : « أستنصر الله عليك وأستعين به » . فطعنه ابن أبى بكر فى جبينه بمشقص (سهم له نصل عريض) ، ثم رفع كنانة بن بشر مشاقص كانت فى يده فوجأ بها فى أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت فى حلقه ، ثم علاه بالسيف فضربه به . وأراد عثمان أن يتقى ضربة السيف بيده فقطعها ، كما أكبت عليه زوجه نائلة وتلقت السيف عنه بيدها فقطع اصبعها . وضرب سودان ابن حمران المرادى عثمان فى جنبه فخر صريعا . وكان ذلك فى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ ، ثم هجم العامة على الدار فنهبوها كما نهبوا بيت المال .

لم يسمح الثوار فى بادىء الأمر بدفن جثمان عثمان ، فظل ثلاثة أيام دون دفن . وطلب بعض القرشيين من على بن أبى طالب أن يتوسط لدى الثوار ليسمحوا بمواراة جثمانه التراب ، فأذنوا بدفنه ، ولم يشهد جنازته سوى خمسة أشخاص بالاضافة الى زوجتيه . وحاول الدهماء قذف جنازة عثمان بالحجارة ، فنهرهم على بن أبى طالب ، وهرع القوم بالجثمان ليوارُوه متخذين من الظلام ستارا يحجبهم عن عيون الثوار[1] .

* * *

(١) محمد حسين هيكل : **عثمان بن عفان** . ص ١٢٤ .

خامسا : على بن ابى طالب .. كرم الله وجهه

عندما بدأت أيام الرسالة الأولى .. بل عندما بدأت أولى ساعاتها ولحظاتها ـ كان هناك ثلاثة يلحظون التغير الهائل الذى أخذ يرسم سيماه على حياة الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم . وهؤلاء الثلاثة هم :

خديجة ـ زوجته .
وعلى ـ ابن عمه .
وزيد ـ خادمه .
ولقد أسلموا بهذا الترتيب أيضا .
سأله « على » وهو ابن عشر سنين لا غير :

ـ ماذا أراك تصنع ؟..
وأجابه الرسول :

ـ انى أصلى لله رب العالمين .
وسأل على :

ـ ومن يكون رب العالمين ؟..
وعلمه الرسول وهداه :

ـ انه اله واحد .. لا شريك له .. له الخلق .. وبيده الأمر .. يحيى ويميت .. وهو على كل شىء قدير ..

ولم يتردد الغلام المبارك ، فأسلم .. وكان أول المسلمين .. فى حين كانت خديجة رضى الله عنها أول المسلمات .

ومن ذلك اليوم ، وهو مع النبى الكريم لا يفارقه .. يصلى معه ، ويصغى اليه ، ويراه وهو يتهيأ لتلقى الوحى ..

وكم من آية ، وآيات ، كان هو أول من يسمعها وهى لا تزال حديثة العهد بمنزلها وموحيها .

وأخذ الذين اصطفتهم السماء لصحبة الرسول يقبلون عليه مؤمنين :

أبو بكر الصديق .. فعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ..

فأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وأبناء مظعون ، وخباب ، وسعيد بن زيد ، وعمار ، وعمير ، وابن مسعود ، الذين كتب لهم شرف السبق الى الاسلام ..

وصارت « دار الأرقم » على الصفا مكان لقائهم ، يلتقون فيه خفية وسرا ، فيتلو عليهم الرسول ما يتنزل به الوحى على قلبه ، ويصلى بهم ، ويبارك ايمانهم[1] .

ولم يغب « على » عن دار الأرقم أبدا ، ولم يفته من مشاهدها الخالدة مشهد واحد .. وتحت سقفها .. وكذلك تحت سقف الدار التى يسكنها النبى ، ويقيم على معه فيها ، طالما سمع آيات الله تتلى . وطالما غمرته أنوار النبوة تغسل حوبه وذنبه .. ولكن متى كان له حوب أو ذنب ؟..

متى ، وهو الذى ولد وعاش فى الايمان والعبادة والهدى ؟..

انه وهو فى السادسة من عمره بدأ يعيش مع « محمد » الصادق الأمين ، يتأدب على يديه ، ويتأثر بطهره وعظمة نفسه ، وتقى ضميره

---

(١) خالد محمد خالد : فى رحاب على . (القاهرة / دار المعارف ، ١٩٨٠) . ص ٤٥ ــ ٤٦ .

وسلوكه .. وحين بلغ العاشرة ، كان الوحى قد أمر الرسول بالدعوة .. وكان « على » سابق المسلمين !!..

وسارت حياته من ذلك اليوم الى أن يجىء اليوم الذى سيلقى فيه ربه .. تطبيقا كاملا وأمينا لمنهج الرسول وتعاليم القرآن .

ألا بوركت هذه الحياة !!..

حياة لم تكن لها قط صبوة ، ولا شهوة ، ولا هفوة ..

حياة : ولد صاحبها ، وتبعات الرجال فوق كاهله ..

حتى لهو الأطفال ، لم يكن لحياة ابن أبى طالب فيه حظ ولا نصيب .. فلا مزامير البادية ، ولا أغانى السمار ، شبع منها سمع الطفل ، ووجدان الشباب .

لكأن المقادير كانت تدخر سمعه ووجدانه لكلمات أخرى ستغير وجه الأرض ، ووجه الحياة ...

أجل .. لقد ادخر سمع الفتى وقلبه ، ليتلقى بهما كما لم يتلق أحد مثله آيات الله العلى الكبير ..

فى نور هذه الآيات المنزلة ، والتى كان الوحى يجىء بها تباعا قضى « على بن أبى طالب » بواكير حياته النضرة ، يبهره نورها .. ويهزه هديرها ..

يسمع آية الجنة يتلوها الرسول ، فكأنما الغلام الرشيد يراها رأى العين ، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وخيراتها !!..

ويسمع آية النار ، فيرتعد كالعصفور دهمه اعصار .. ولولا جلال الصلاة وحرمتها لولى هاربا من لفح النار الذى يكاد يحسه ويراه !!..

أما اذا سمع آية تصف الله فى عظمته وجلاله ، أو آية تعاقب الناس على اشراكهم بالله ما ليس لهم به علم ، وجحودهم فضله ونعمته .. فعندئذ يتحول الغلام الى ذوب تقى وحياء ..

لقد أشرب قلبه جمال القرآن ، وجلاله ، وأسراره .. هذا الذى يشهد نزوله آية ، آية ، حتى صار يقول وهو صادق :

« سلونى ، وسلونى ، وسلونى عن كتاب الله ما شئتم .. فوالله ما من آية من آياته الا وأنا أعلم أنزلت فى ليل ، أم فى نهار » !

وحتى كان كما وصفه « الحسن البصرى » رضى الله عنه : « أعطى القرآن عزائمه ، وعلمه ، وعمله .. فكان منه فى رياض مونقة وأعلام بينة »[1] .

هذا هو : على بن أبى طالب ..

هذا ، هو الذى نرجو ألا نكون مغالين اذ وصفناه بأنه : « ربيب الوحى » !!..

فطوال السنوات الأولى لنزول الوحى ، كان فتانا هناك ، يشهد نزوله ، ويسبق غيره فى تلقيه من رسول رب العالمين . ويلقى سمعه وقلبه لأسراره وأنواره ..

لطالما شهدته شعاب مكة ، وهو « ثانى اثنين » الرسول عليه السلام ، وعلى كرم الله وجه ، يصليان معا ، بعيدا عن أعين القرشيين وأذاهم ..

وهناك فى رحاب الصحراء الواسعة ، حيث لا يرتد البصر أمام حدود أو سدود ، وحيث تتنزل على النفس أسرار الكون العظيم ، عاكسة على الشعور جلاله ومجده ، كان « على » يتلقى من فم الرسول الكريم كلمات القرآن وآياته ــ نفسه مرهفة ، وعزمه متهلل .. روحه حر .. وشخصيته بكل خصائصها الموروثة والمكتسبة ، تتلقى تأثيرا لا يقاوم .. وتستسلم فى غبطة مطلقة لهذه الآيات التى آمن بها وحيا ، ودينا ، وآمن بقارئها وتاليها نبيا ورسولا ..

---

(١) المرجع السابق . ص ٤٩

من أجل هـذا لا نعجب اذا رأينـا « عليا » طوال حيـاته يعطى القرآن ولاء مطلقا ، ولا يقبل أو يغفر أدنى ميل عنه أو أقل تفريط فيه .

انه « ربيب الوحى » والتلميذ الأول للقرآن .. وانه « سـابق المسـلمين » ..

ألم يسـمع القرآن ويتـأمل فى هدير ورهبة :

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته تؤمنـون ﴾ . (الجاثية : ٦)

ومن هذه الآية ، ومثلها معها من آيات القرآن الكريم ، أشرب قلب « على » ولاء للقرآن ليس له نظير ..

● **صـــفاته :**

المشهور عن على كرم الله وجهه أنه كان أول هاشـمى من أبوين هاشميين .. فاجتمعت له خلاصـة الصـفات التى اشتهرت بها هـذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها فى كثير من أعلامها المقدمين ، وهى فى جملتها النبل والشـجاعة والمروءة والذكاء ، عدا المـأثور فى سـماتها الجسدية التى تلاقت أو تقاربت فى عدة من أولئك الأعلام ..

فهو ابن أبى طالب عبد المطلب بن هاشـم بن عبد مناف ، وأمه فاطمـة بنت أسـد بن هاشم بن عبد مناف . وكان على أصغر أبنـاء أبويه ، وأكبر منـه جعفر وعقيـل وطالب ، وبين كل منهم وأخيـه عشر سـنين .

قيـل ان عقيلا كان أحب هؤلاء الاخوة الى أبيه ، فلما أصـاب القحط قريشـا وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعبـاس أن يحملوا ثقـل أبى طالب فى تلك الأزمة وجاءوه وسـألوه أن يدفع اليهم ولده ليكفو أمرهم ، فقال : دعوا لى عقيلا وخـذوا من شئتم .

فأخذ العباس طالبا وأخذ حمزة جعفر وأخذ النبى عليه السلام عليا كما هو مشهور . فعوضه ايثار النبى بالحب عن ايثار أبيه ، ولكنه عرف هذا الايثار فى طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر فى نفسه على ما يبدو من أطوار حياته

وربما صح من أوصاف على فى طفولته أنه كان طفلا مبكر النماء سابقا لأنداده فى الفهم والقدرة ، لأنه أدرك فى السادسة أو السابعة من عمره شيئا من الدعوة النبوية التى يدق فهمها والتنبه لها على من كان فى مثل هذه السن المبكرة . فكانت له مزايا التبكير فى النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التى تلازم أكثر المبكرين ، ولا سيما المولودين منهم فى شيخوخة الآباء ..

ونشأ رضى الله عنه رجلا مكين البنيان فى الشباب والكهولة ، حافظا لتكوينه المكين حتى ناهز الستين ..

وقال واصفوه وهو فى تمام الرجولة انه كان رضى الله عنه ربعة أميل الى القصر ، آدم — أى أسمر — شديد السمرة ، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقيل العينين فى دعج وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ، أغيد كأنما عنقه ابريق فضة ، عريض المنكبين لهما مشاش — رأس ضخم — كمشاش السبع الضارى لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت ادماجا . وكان يميل الى السمنة فى غير افراط ، ضخم عضلة الساق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، خشن الكفين ، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى ، ويقدم فى الحرب مهرولا لا يلوى على شىء .

وتدل أخباره — كما تدل صفاته — على قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات . فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه

أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس ، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحدا الا صرعه ، ولم يبارز أحدا الا قتله ، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه الا رجال ، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان .

وكان الى جانب قوته البالغة ، شجاعا لا ينهض له أحد فى ميدان مناجزة ، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنا من الأقران بالغا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت . فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التى يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب . ويزيدها تشريفا أنها ازدانت بأجمل الصفات التى تزين شجاعة الشجعان الأقوياء .. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التى طبع عليها على بغير كلفة ولا مجاهدة رأى . وهى التورع عن البغى ، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال .. فمن تورعه عن البغى ، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة ، انه لم يبدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة عنه ، وكان يقول لأبنه الحسن : « لا تدعون الى مبارزة . فان دعيب اليها فأجب . فان الداعى اليها باغ والباغى مصروع »[1] .

أما مروءته فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان.. فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا . وصلى على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء ، وذلك فى وقعة الجمل . وظفر بعبد الله ابن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه ، فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء . وظفر بعمرو بن العاص ، وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة ، فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته .. وحال جند معاوية بينه وبين

---

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٦٩٠

المـاء فى معركة وهم يقولون له : ولا قطرة حتى تموت عطشـا .. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سـوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده .. وكانت هـذه المروءة سـنته مع خصومه ، من استحق منهم الكرامة ومن لم يسـتحقها .

ويقترن بالشجاعة ـ ولا سيما شجاعة الفرسـان المقاتلين ـ صـفة لازمة لها متممة لعملها ، فلا تكون شـجاعة الفروسـية ألا تكون معها هـذه الصـفة التى نشـير اليها ، وهى صفة « الثقة » أو « الاعتزاز » لا سـيما فى مواقف النزال .. وقد يسميها بعض الناس « زهوا » ، وليست هى به ولا هى من معـدنه وسـمته ، وان شـابهته فى بعض الملامح .

أما هذا الاعتزاز الذى نشـير اليه ، أو هـذه الثقة التى تظهر لنا فى صـورة الاعتزاز ، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يسـتغنى عنه ولا يزال متصـلا بعمله فى مواجهة خصـومه . وهو عرض للقـوة يسـاعد الفارس فى ارهاب عـدوه واضعاف عزيمـة من يتصـدى لحربه .. مثله هنـا كمثل العروض التى تعمد اليها الجيوش لأعلان بأسها وتخويف الأعـداء من الهجوم عليها . فهو كالشـجاعة أداة ضرورية من أدوات القتـال لا تنفصل عنها ، وليس كل ما فيها ضربا من الخيـلاء يرضى به الشـجاع غروره ويتيه به فى غير حاجة الى التيه ..

وقد كان مدار هذا الخلق فى ابن أبى طالب على ثقة أصيلة فيـه لم تفارقه منـذ نعومة أظفاره . فما منعته الطفـولة الباكرة يوما أن يعلم أنه شىء فى هـذه الدنيـا وأنه قوة يركن اليها المستجير ..

فعلى هـذا هو الذى نام فى فراش النبى ليلة الهجرة ، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش ..

وتمكنت هـذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التى هى ـ كما أسـلفنا ـ جزء منها وأداة من أدواتها .

وكان على لا يتكلف اظهار شيء ولا يتكلف اخفاء شيء ، ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه .. وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة . وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء . كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه ، وانما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها .

وكانت قلة التكلف هذه توافق خليقة أخرى كالشجاعة فى قوتها ورسوخها .. ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذى يجترىء به الرجل على الضر والبلاء كما يجترىء على المنفعة والنعماء .. فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح فى سلمه وحربه ، وبين صحبه أو بين أعدائه .

وصدق فى تقواه وايمانه كما صدق فى عمل يمينه ومقالة لسانه ، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه فى لذة الدنيا أو جاه الخلافة ، وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل فى بطنى ما لا أعلم » .. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التى تبغض عليا وتخلق له السيئات وتخفى ما توافر له من الحسنات : « أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب » . وقال سفيان : « ان عليا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » . وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ايثارا للخصاص التى يسكنها الفقراء . وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الطعام والكساء . وروى النضر بن منصور عن عقبة ابن علقمة قال : « دخلت على على عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر يابسة . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟ فقال لى : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار الى ثيابه — فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به »[1] .

---

(١) المرجع السابق . ص ٦٩٧

ومن هذا الزهد الشديد كان على رضى الله عنه أبعد الناس من كزازة الطبع أو جفاء عشيرة ، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة .

وقد كانت للامام صفات ومزايا فكرية تضاهى المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية .. فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته ، واتفقوا على علمه وفطنته ، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه فى علاج الأمور ودهائه فى سياسة الرجال .. والحق الذى لا مراء فيه أنه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف ، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة فى مشكلات الحكم والقضاء ، وأنه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير ، وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق اليه علم فارس أو علم يونان . وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها فى عظاته شرح الأديب اللبيب .

هذه صفات تنتظم فى نسق مقبول : رجل شجاع لأنه قوى ، وصادق لأنه شجاع ، وزاهد مستقيم لأنه صادق ، ومشار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له فى حياته أجمل صفاته المثلى ، فلم يختلفوا على شىء منها الا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت الشبهات ، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه الى الصميم .

● **مفتاح شخصيته :**

ان « آداب الفروسية » هى مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذى يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج الى تفسير . وآداب الفروسية هى تلك الآداب التى نلخصها فى كلمة واحدة وهى « النخوة » ..

وقد كانت النخوة طبعا فى على فطر عليه ، وأدبا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه ، وعادة من عادات « الفروسية » العملية التى يتعودها كل فارس وشجاع يتغلب على الأقران ، وان لم يطبع عليها وينشأ فى حجرها . لأن للغلبة فى الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف الى ما يخجله ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلما ، وتمنعه أن يعمل فى السر ما يزرى به فى العلانية .

وهكذا كان على رضى الله عنه فى جميع أحواله وأعماله : بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولا سيما فى معاملة الضعفاء من الرجال والنساء . فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة ، ولم يساوره الريب قط فى الشرف ، والحق أنهما قائمان دائمان كأنهما مودعان فى طبائع الأشياء . فاذا صنع ما وجب عليه فليس من شاءوا ما وجب عليهم ، وان أفادوا كثيرا وباء هو بالخسار .

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه ، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف ، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص .

وقد لاحت له فرص فى معركة صفين وفى حرب أهل البصرة ، فأبى أن يبتهلها ، وأغضب أعوانه انصافا لأعدائه ، لأنه فهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبى وهو فى رأيهم حلال . قالوا : أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟.. فقال : « انما القوم أمثالكم ، من صفح عنا فانه منا ونحن منه ، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر » ، وسن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترا ولا يمدوا يدا الى مال[1] .

لقد كان رضاه من الآداب فى الحرب والسلم معا رضا الفروسية

---

(١) **المرجع السابق** ، ص ٧٠١

العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها .. فكان يعرف العدو عـدوا حيثما رفع السـيف لقتاله ، ولكنـه لا يعادى امرأة ولا رجلا موليا ولا جريحا عاجزا عن نضـال ، ولا ميتا ذهبت حياته ولو ذهبت فى سبيل حربه .. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلى عليه

وهذه الفروسية هى التى بغضت اليه أن ينال من أعدائه بالسباب ، وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسـام .. فلما سمع قوما من أصـحابه يسبون أهل الشـام أيام حروبهم بصفين قال لهم : « انى أكره أن تكونوا سـبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصـوب فى القول ، وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان سبكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهـدهم فى ضلالهم حتى يعرف الحـق من جهله ، ويرعوى عن الغى والعـدوان من لهج به »[1] .

فالامام على رضى الله عنه فارس لا يخرجه من الفروسـية فقـه الدين بل هـو أحرى أن يسلكه فيها . ولا يخرجه من الفروسية بعض المقـال فى خصـومه بل هى بوادر الفرسـان بعينها ، ولا تزال آداب الفروسـية بشتى عوارضها هى المفتـاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه النفس فاذا هو منكشف عما بليه .

● **اسـلامه :**

ولد على فى داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة ايذانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها .

وكاد على أن يولد مسلما .. بل لقد ولد مسلما على التحقيق اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح ، لأنه فتح عينيه على الاسلام ، ولم يعرف قط عبادة الأصـنام ..

---

(١) **المرجع السـابق** ، ص ٢٠٧

فهو قد تربى فى البيت الذى خرجت منه الدعوة الاسلامية ، وعرف العبادة من صلاة النبى وزوجته الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه ، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة . فكان ابن عم محمد عليه الصلاة والسلام وربيبه الذى نشأ فى بيته ونعم بعطفه وبره . وقد رأينا الغرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على آبائهم وذويهم ، فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد ، ويجمعه به بيت ، ويجمعه به جميل معروف : جميل أبى طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسنه ابن أبى طالب ويأوى اليه .

على أن الألفة بين ابنى العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقا لاسلام على فى طفولته الباكرة . لأن النبى عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم ، وأشفق أن يكون بره بعمه وبابن عمه سبيلا الى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل . ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفى سرا عن أبيه كأنه يخدعه باخفائه ونو فى سبيل الهداية والخير . فظل هذا الحرج الكريم عائقا عسيرا أعسر ما فيه أنه عائق اختيار يهون معه الاضطرار ، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم . حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونصر ابن أخيه وأمر عليا بمتابعة ابن عمه ونصرته ، فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله اقبالا لا تلجلج فيه على الدين الجديد .

وملأ الدين الجديد قلبا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه .. فيحق ما يقال ان عليا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى ، وأن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق اسلاما منه ولا أعمق نفاذا فيه ..

كان المسلم حق المسلم فى عبادته ، وفى علمه وعمله ، وفى قلبه وعقله ، حتى ليصح أن يقال انه طبع على الاسلام فلم تزده المعرفة الا ما يزيده التعليم على الطباع .. كان عابدا يشتهى العبادة كأنها

رياضة تريحه وليست أمرا مكتوبا عليه . وكان يرى فى كهولته وكان جبهته تفنه بعير من ادمان السجود .

وقد أحسن الاسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا .. فكانت فتاواه مرجعا للخلفاء والصحابة فى عهود أبى بكر وعمر وعثمان ، وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به أو تنهض به الحجة بين أفضل الآراء .. الا أن المزية التى امتاز بها على بين فقهاء الاسلام فى عصره أنه جعل الدين موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة واجراء الاحكام ، فاذا عرف فى عصره أناس فقهوا فى الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه ، فقد امتاز على بالفقه الذى يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة ، وأمعن فيه ليغوص فى أعماقه على الحقيقة العلمية ، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها فى عصرنا هذا .

● **ثقافته :**

من الألقاب الشائعة ، لقب « الامام » الذى اختص به على بين جميع الخلفاء الراشدين ، والذى يطلق إذا أطلق فلا ينصرف الى أحد غيره ، بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه .

ولم وليس هو بفرد فى الامامة بجملة معانيها ؟..

ألم يكن الصديق اماما كعلى ؟.. ألم يكونوا خلفاء راشدين اذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ بلى كانوا أئمة مثله ، وسبقوه فى الامامة ..

ولكن الامامة يومئذ كانت وحدها فى ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الامامة ليناضل به علم الدولة الدنيونة ، ولا أن يتحيز لصفة تناوئها صفة ، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشىء غيرها .. فكلهم امام حيث

لا اشـــتباه ولا التباس ، ولكن الامام بغير تعقيب ولا تدبيل هو الامام كلمـــا وقع الاشـــتباه والالتباس ..

وذلك هو على بن أبى طالب ، كما لقبـــه الناس وجرى لقبـــه على الألســـنة ..

وخاصة أخرى من خواص الامامة ، ينفرد بها على ولا يجاريه فيها امام غيره ، وهى اتصـــاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الاســـلامية منذ وجدت فى صدر الاسلام ، فهو قطب هذه الفرق الذى تدور عليه . وندرت فرقة فى الاســـلام لم يكن على معلما لها منـــذ نشـــأتها ، أو لم يكن موضـــوعا لها ومحورا لمباحثها .

وقـــد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كمـــا اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة.. فهو أســـتاذ هؤلاء جميعا بالســـند الموصول ..

فالامام أحـــق لقب به ، وهو أحق الأئمة بلقب الامام !..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء فى كثير من صفاته ، وكثير من معارض حياته ، وطوارىء أوقاته .

وكانت له فى الامامة آية أخرى من هذه الآيات ..

فآية الشهداء انهم يبخســـون حقهم فى الحياة ، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات .. أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا فى اقبالهـــا وادبارها ، كما قال الامام رضى الله عنه : « انها اذا أدبرت عن انســـان سلبته محاسن نفسه ، واذا أقبلت عليـــه أعارته محاسن غيره »[1] .

وكذلك اتفق للامام فى صـــفة الامامة ، كمـــا اتفق له فى معظم الصـــفات ..

---

(١) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٨٠٣

فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الاسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب اليه ، وقل أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه اياه ، وقل أن توجه الثناء بالعلم الى أحد من الأوائل الا كانت له مساهمة فيه ..

وعندنا أنه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير .. لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الاجادة فى شعره ، والنبى عليه السلام كان يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعلى فى هجاء المشركين فقال : « ليس بذاك » .. وأحالهم الى حسان بن ثابت ، وندب له من يبصره بمثالب القوم[1] .

تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الاسلامى ، والقضاء الاسلامى ، والفقه الاسلامى ، وعلم النحو العربى ، وفن الكتابة العربية .. مما يجوز لنا أن نسميه أساسا صالحا لموسوعة المعارف الاسلامية فى جميع العصور ، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الاسلامية كلها فى الصدر الأول من الاسلام ... وتبقى له مع هذا فوائد الحكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمة الاسلامية ، على تباين العصور .

أما القضاء والفقه ، فالمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة .. أو لم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على اخراج الأحكام من القرآن والحديث والعرف المأثور ؟.. وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة : قضية ولا أبا الحسن لها .. لأنه كان فى هذه المسائل يتجاوز التفسير الى التشريع ، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح ..

وفى أخباره ، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه..ومن هذه الأدوات علم الحساب الذى كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف فى معضلات المواريث ، لأنه كان سريع الفطنة الى حيله

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٨٠٤

التى كانت تعد فى ذلك الزمن ألغازا تكد فى حلها العقول ، فيقال ان امرأة جاءت اليه وشكت اليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار ، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد .. فقال لها : لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثنى عشر أخا وأنت ؟ فكان كما قال[1] .

فى مثل هذه الاجابات دليل على الذكاء وسرعة البديهة .. فضلا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب .

واذا قيل فى قضائه انه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه ، صح أن يقال فى « علم النحو » انه لم يكن أحد أوفر سهما فى انشاء هذا العلم من سهمه . وقد تواتر أن أبا الاسود الدؤلى شكا اليه شيوع اللحن على ألسنة العرب ، فقال له : اكتب ما أملى عليك ، ثم أملاه أصولا منها : أن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبـ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل .. وأن الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر .. وانما تتفاوت العلماء فى معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر .. يعنى اسم الاشارة على قول بعض النحاة ، ثم قال لأبى الأسود : انح هذا النحو يا أبا الأسود .. فعرف العلم باسم « النحو » من يومها[2] .

وليس الامام على أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال الخطب على المنابر فى الأمة الاسلامية .. ولكنه لا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الانشاء الذى يقتدى به فى الأساليب .. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة منشئين ، ويقصدون الى أداء ما أرادوه ولا يقصدون الى فن الأداء وصناعة التعبير . ولكن الامام عليا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق ،

---

(١) المرجع السابق . ص ٨٠٧
(٢) المرجع السابق . ص ٨٠٨

واتنظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى الى طور التفنن والتجويد .. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع ، هو فيما نرى أول أساليب الانشاء الفنى فى اللغة العربية ، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة ، ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الاسلامية ..

وبعض أقواله ينضح بدلائل « الشخصية » التى تلازم صاحب الفن الأصيل ، فتلبس معانيه لباسا من خوالج نفسه وأحداث زمانه ، كما قال : « صواب الرأى بالدول ، يقبل باقبالها ويذهب بذهابها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » .. « شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فانه أخلق للغنى وأجدر باقبال الحظ عليه » .. أو كما قال : « اذا هبت أمرا فقع فيه ، فان شدة توقيه أعظم مما تخاف منه » أو كما قال : « لا يقيم أمر الله سبحانه الا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع »[1] .

ولا يتم القول فى ثقافة الامام على رضى الله عنه ، ما لم نتسمه بالقول فى نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب ، الذى هو مضماره الأول ومناط شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة ، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة ..

فجملة ما يقال فى هذا الصدد ، أن فن الامام العسكرى هو فن البطل المغوار الذى يناضل الأفراد وينفع الجيش الذى هو فيه بقدوة الشجاعة واذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه ، وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم ، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت فى عضده ..

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٨١٢

وكانت له وصـاياه المحفوظة فى تسـيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسـكان البلاد ، ومنها قوله : « اذا نزلتم بعـدو أو نزل بكم ، فليكن معسـكركم من قبـل الاشراف وسـفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار ، كيما يكون لكم رداء ودونكم ردا ، ولتكن مقاتلتكم فى وجـه واحـد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقبـاء فى صياصى الجبـان ومناكب الهضـاب ، لئلا يأتيكم العـدو من مكان مخافة أو أمن ، واعلموا أن مقـدمة القـوم عيونهم ، وعيـون المقدمة طلائعهم . واياكم والتفرق ، فاذا نزلتم فانزلوا جميعا واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعا ، واذا غشـيكم الليـل فاجعلوا الرماح كفـة ـ أى محيطة بكم ـ ولا تذوقوا النـوم الا غرارا أو مضمضة » .

ومنها قوله : « ولا تسر أول الليـل ، فان الله جعله سـكنا وقدره مقاما ولا ظعنـا » . ومنها قوله للولاة : « انى سـيرت جنودا هى مارة بكم ان شـاء الله ، وقـد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشـذى ، وأنا أبرأ اليكم والى ذمتكم من مغرة الجيش الا من جـوعة المضطر لا يجـد عنها مذهبـا الى شـعبه ، فنكلوا من تناول منهم شـيئا ظلما عن ظلمهم ، وكفوا أيدى سـفهائكم عن مضـارتهم والتعرض لهم .. »[1] .

وخلاصة ذلك كله ، أن ثقافة الامام هى ثقافة العلم المفرد والقمـة العالية بين الجماهير فى كل مقام . وأنها هى ثقافة الفارس المجاهد فى سـبيل الله ، يداول بين السيف والقلم ، ويتشـابه فى الجهاد بأسـه وتقواه .. لأنه بالبأس زاهـد فى الدنيا مقبل على الله ، وبالتقوى زاهد فى الدنيـا مقبـل على الله .. فهو فارس يتلاقى فى الشـجاعة دينـه ودنيـاه ، وهو عالم يتلاقى فى الدين والدنيا بحثه ونجواه ..

---

(١) المرجع السـابق . ص ٨١٤ ـ ٨١٥

● حكومتـــه :

كانت الدولة الاســلامية الناشــئة على شفا الخطر فى ابان الفتنة الداخلية بين على ومعاوية •• ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذى يحيط بها كانت أقــوى من عوامل الخطر الذى يهددها •• وتتلخص عوامل الأمان فى وقائين اثنين :

أحــدهما ، أن الاســلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهــو مســتعد لها مستريح اليها ، فرسخت دعائمه وامتنعت حــدوده بعــد أعوام قليلة من ظهوره ، وســكن اليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عــدله ، ســواء منهم من دخل فيه ومن أوى الى حكمه وهو باق على اعتقــاده ••

وثانيهما ، أن أعــداء الاسلام كانوا فى شاغل عنه بما أصــابهم من الوهن وأحــدق بهم من المخاوف ، وربما صح فى الفتنة الاسلامية يومئذ أنها أغرت أعــداء الاســلام بالانتظار ، وأوقعت فى روعهم أنهم غنيون عن التحفز والوثوب الذى يشــق عليهم جهــده ، وهم فى تلك الحــالة من الاعياء والجهد ••

وعلى هــذا انقضت أيام على وليس للحكومة الاســلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح ، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع •• وكل ما يدور الكلام عليــه عن الحكومة فى عهــده ، هو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه ، أو هــو الســياسة الداخلية كما نسميها فى العصر الحــديث ••

ومن اليســير أن نعرف ســياسة الامام بينه وبين رعاياه ، بغير حاجــة الى الاطالة وسرد الأمثال •• لأنها ســياسة الرجل الذى شــاء القــدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية فى نضــالها الأخــير مع الدولة الدنيوية •• فنحن نتخذ ما شــئنا من طريقين متقابلين ، فاذا طريق على

هى طريق الخلافة المنزهة ، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض • أو هى أقرب الطريقين الى المساواة وأدناهما الى رعاية الضعفاء •

فالناس فى الحقوق سواء •• لا محاباة لقوى ولا اجحاف بضعيف ، وقد عمد الى القطائع التى وزعت قبله على المقربين والرؤساء ، فانتزعها من القابضين عليها وردها الى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنة المساواة ، وقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان فى العدل سعة •• ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق »[1] •

وفرض الرفق بالرعية على كل وال ، فلا ارهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هى صاحبة الحق فى المال • وكان دستوره فى تحصيل الضرائب المفروضة على الناس ، أن النظر فى عمارة الأرض أبلغ من النظر فى استجلاب الضريبة •

أما دستوره فى الولاة والعمال ، فخلاصته ما كتب به الى الأشتر النخعى : « انظر فى أمور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة وأثرة •• فانهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام ، فانهم أكثر أخلاقا وأصح اعراضا وأقل فى المطامع اسرافا ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا •• ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق •• فان تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية »[2] •

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٧٨٥

(٢) عباس محمود العقاد : **العبقريات الاسلامية** . ص ٧٨٦ ـ ٧٨٧

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الامامة والدعوة العالمية ، انه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة الى أرض غير أرض الحجاز ، وهو الحجازى سليل الحجازيين ..

وقد اختار الكوفة ، فكانت أوفق عاصمة للامام العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الاسلامية .. لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس ، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام ، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأقانين الشعرية والروايات .. فهى أليق العواصم فى ذلك الوقت بحكومة امام ، وما زالت الامامة لاحقة بعلى ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام ..

● **الراحل والمقيم(١) :**

ضاعت الفرص من نفسها ، وما ضاعت من على ..

ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التى كان الامام يريد أن يعيدها الى جادتها ، ويمضى بها على صراطها الأول القويم .

ضاعت من مقادير الاسلام التى كانت تصبح على موعد مع خليفة آخر من طراز « عمر » فى صرامته ، وعدله .. فى استقامته وورعه .. فى ترفعه ، وتواضعه ، وزهده ..

والخليفة المتقشف الذى تجبى اليه الأموال حلالا من أقطار الأرض، ثم هو يلبس قميصا بثلاثة دراهم !!

الخطيب الذى تهتز الدنيا لكلماته ، وهى تخرج من وراء شفتيه ناضرة قاهرة !!

الفقيه العالم الذى تتفجر الحكمة من نفسه ، وعقله . ويجرى الحق على لسانه وقلبه !!

---

(١) خالد محمد خالد : فى **رحاب على** . ص ١٧٥ ــ ١٨٧

العابد ، الورع ، التقى ، الذى تفوق على اغراء الدنيا ، وأطماع البشر !!

تلميذ « الرسول » الأول ، والأمثل .. ربيب الوحى ، وسابق المسلمين !!

كل هذا فى طريقه الآن الى الرحيل .. ليحتل مكانه ملك عضوض يقوم ايوانه وعرشه فى الشام ، حيث ترتفع رايات الزهو والأنانية ، وحيث تدق طبول الطموح والمجد الفارغ !..

الآن تقترب الأمور من نهاياتها .. ويقف « البطل » بين فتنتين عارمتين ..

أولاهما : فى الشام تصيح (يا لثارات عثمان) !!

وثانيتهما : فى العراق تصيح : (لا حكم الا لله) !!

ولئن كانت الأولى أعنى وأوسع ، فان الثانية أمض وأوجع . ذلك أن ذويها ومشعليها الذين كانوا بالأمس لا غير ، أتباعه وجنده هم الذين أصر أكثرهم على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه ويدعوهم الى رفضه .

ولقد فقد الامام كل أمل فى هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله بن خباب وزوجه ، والطريقة التى قتلوهما بها ..

لم يكد مقتل « عبد الله بن خباب » يبلغ مسامع الامام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو ترك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيثون فى أرض الناس فسادا . فلوى زمام جيشه عن الشام الى النهروان ، حيث لقى الخوارج فى معركة فاصلة أباد فيها جمعهم ، وشتت شملهم ، ويوح رؤوس قادتهم وزعمائهم .

أفما آن له أن يستريح ؟..

انه ليحس أن قد آن أوانه ..

فان أهل الكوفة الذين دعاهم الى السير معه صوب الشام للقاء معاوية ، قد تقاعسوا وراحوا يتسللون الواحد بعد الآخر من معسكرهم بالنخيلة .. حتى تلفت الامام ذات صباح فلم يجد حوله سوى ألف لا يزيدون !!.. انتهى دوره اذن .. ففيم البقاء ؟

لقد كانت حياته فى دورها الأخير هذا وقفا على قضية كبرى .. أن يعيد للاسلام حقيقته ، وللمسلمين وحدتهم ، وللدولة الاسلامية تماسكها ، وشرعتها ، واستقامتها ..

ولقد كانت قضيته واضحة المحيا ، مشرقة الجبين ، ناصعة الحجة ، طاهرة الضمير . وان عظمتها لتتجلى عندما جاء ذلك اليوم الذى وقف فيه « معاوية » يأخذ البيعة السيف لابنه « يزيد » !.

انه لو كان يأخذها لواحد من صلحاء بنى أمية وفضلائهم ، ما جاز له حمل المسلمين عليها بالرهبة والقوة . فكيف وهى « يزيد » ؟!

لقد كشف هذا العمل من معاوية عن أحد وجوه القضية الجليلة التى كان الامام يقاتل دونها .

أجل .. يومئذ تكشف هذا الوجه من القضية الكبرى التى نذر البطل لها حياته ، فألقى ضوءه على وجوه القضية كلها ..

وأحس المسلمون فى كل مكان ، وفى العراق خاصة ، أنهم صائعون فى الاثم ، شركاء فى الوزر ، يوم تخلوا عن « البطل » وتركوه وحده فى الفضاء الموحش بين الوحوش والذئاب !.

وراحوا يبكون ، ويولولون .. لقد أحسوا فجأة بالفراغ القاتل الذى خلفه لهم غياب أبيهم الحنون ، الطيب ، العادل ، الرحيم . وراحوا يترحمون عليه من كل أفئدتهم الصادعة الضارعة ..

فلقد مات .. قتـل غيلة .. استشهد البطل والخليفة والامام .. وهو يقترب من باب مسـجد الكوفة ، وهو يتهيأ لصلاة الفجر ، ويوقظ أهل الكوفة للصـلاة ..

اقترب منه فى لجـة الظلام واحد من الخوارج اسمه « عبد الرحمن ابن ملجم » ، كان قـد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصـوا من الامام بالعراق ، ومن « معاوية » بالشـام ، ومن « عمرو بن العاص » بمصر .

كان « الامام » بلا حرس .. فكان اغتياله سهلا ومن أيسر الأعمال.

لم تكن الجريمة تتطلب أى جلد ، أو قـوة ، أو بطولة .. كانت تتطلب ـ لا غير ـ ضميرا ميتا ، وتفكيرا ضالا ، وقلبـا أعمى ، وارادة مسـوخة !!..

فلما وجـدت هذه جميعا ، فى صـورة آدمى ، وسلحت بسـيف مسـموم .. تم كل شىء فى لحظات !!

وحققت الأقـدار للبطل أمنيته الأخيرة ..

فقبل استشهاده بأيام ، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه ، ووقف أحـد أصحابه يتلوه عليهم بعـد صلاة الجمعة :

« .. أما والله لوددت أن الله أخرجنى من بين أظهركم ، وقبضنى الى رحمته من بينكم ..

« ولوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم ..

فقـد والله ملأتم صـدرى غيظا ،

وجزعتمونى الأمرين أنفاسـا ،

وأفسـدتم على رأيى بالعصيان والخذلان ..

حتى قالت قريش : ان أبى طالب رجل شجاع ،

ولكن لا علم له بالحرب .. لله أبوهم !!

هل كان فيهم رجل أشد لها مراسا ، وأطول مقاساة منى ؟

« لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين .

« وها أنذا اليوم قد عدوت الستين ..
« ولكن ، لا رأى لمن لا يطاع » !!..
أجل : يا أمير المؤمنين ، لا رأى لمن لا يطاع ..

ولقد سارع القدر الى رجائك ، فأخرجك الله من بين أظهرهم ، وقبضك الى رحمته تقيا ، نقيا ، بارا .

لقى الامام ربه ـ أخيرا ـ مصابا بضربة سيف مسموم .. كما لقيه من قبل عمر الفاروق ، مصابا بضربة خنجر محموم !!

وتأبى عظمة البطل الا أن يكون آخر مشهد من حياته جديرا بها أكثر ما تكون الجدارة ، ودالا على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة ..
فانه لم يكد يتلقى ضربة القدر حتى حمل الى داره ..
واذ هو في لحظات الكارثة هذه ، يأمر حامليه والحافين حوله أن يذهبوا الى المسجد ليدركوا صلاة الفجر ..

وفى لحظات نهايته ، زاره وفد من أصحابه ، وسألوه أن يستخلف عليهم ابنه « الحسن » من بعده ، فأبى وقال :

« لا آمركم ، ولا أنهاكم .. أنتم بأموركم أبصر » ..

وأرادوا أن يحملوه على ما يريدون ، فوضعوا أناملهم على الوتر الذى يعرفون أنه يهزه من أعماقه ، وقالوا له : « وماذا تقول لربك ، ان لقيته دون أن تستخلف علينا » ؟..
فأجابهم :

« أقول له : تركتهم دون أن أستخلف عليهم . كما ترك رسولك المسلمين دون أن يستخلف عليهم » ثم دعا بنيه ، وعلى رأسهم « الحسن » رضى الله عنهم أجمعين . وراح يملى عليهم وصيته :

« .. أوصيكم بتقوى الله ربكم ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون .
واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا فانى سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول : ان صلاح ذات البين ، أفضل من الصلاة والصيام .

« الله ، الله فى القرآن ، لا يسبقنكم الى العمل سابق ..

« الله ، الله فى الفقراء والمساكين ، أشركوهم فى معاشكم ..

« لا تخافن فى الله لومة لائم ، يكفكم من أرادكم وبغى عليكم .

« لا تدعوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله تعالى .

« عليكم بالتواصل وإياكم والتدابر ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان .. » .

وقع الاعتداء على حياة الامام فجر يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة ، وفاضت روحه الطاهرة مع غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان .

وهكذا رحل « ابن أبى طالب » عن الدنيا .. ولكن حياته والأيام التى عاشها على الأرض تحولت الى شمس أخذت مكانها العالى فى حياة البشرية وتاريخها ، وراحت تجذب الى مدارها قيم الحق ، والبطولة ، والايمان ، والخير ، والشرف .

وهذا الطراز النادر من البشرية ، تمنحه المقادير الخلود ، فلا تسلمه للنسيان ولا للعدم ، لأنه يشكل للانسانية ضميرها ، ونهاها ..

من كلمات الامام التى لم يقلها أحد غيره ، كلمته فى خطاب الدنيا حيث يقول :

« يا دنيا غرى غيرى .. غرى غيرى » !

وانها لأكثر من كلمة ، وأكثر من دعاء .. انها لسان قدر ، وعنوان حياة ..

فقد خلق الامام ، وفى كل خليقة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا ، على ضرب من ضروب الاجتراء ..

خلق شجاعا بالغا فى الشـــجاعة ، وزاهدا عظيم الزهد ، ودارســـا محبا للحقيقة الدينية يتحراها حيث اهتدى اليها ..

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى الحياة ..

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى النعيم ..

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده الى غاية من ورائها ..

ان صورته المجملة لا تشـــق على مصور ولا على متفرس ، لأنها صـــورة المجاهد فى سبيل الله بيده وقلبه وعقله ، أو صورة الشهيد ..

انه خرج الى الدنيـــا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخـــرج منها والشـــهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام ..

لقد ولد ــ كما علمنا ــ فى الكعبـــة المشرفة . وضرب ــ كمـــا علمنا ــ فى طريقه الى المسجد .. فأية بداية وأية نهاية أشبه بالحيـــاة التى بينهما من تلك البداية وتلك النهاية !..

* * *

سادسا : خامس الخلفاء : عمر بن عبد العزيز

لم ينعم فتى فيما أترف فيه كما تنعم « عمر بن عبد العزيز » ، ولم يستمتع شاب بزينة الحياة وبالطيبات من الرزق كما تمتع ، ولم يتحدث أحد بنعمة ربه كما حدث !!..

كان اذا سار عبق المسك يعلن عن مقدمه ، وانه ليتيه متبخترا في مشيته ، حتى ليقلده أهل الغنى من شباب عصره ، وحتى لتقلده الجوارى فى قصره ، فأصبحت المشية العمرية من آيات الأناقة عند الرجال والنساء !!..

يلبس أفخر الثياب مما تصنعه مصر ، ويغير كل يوم حلتين .. واذا سافر حمل ثلاثون بعيرا متاعه : من الكتب ، ومن أشهى الطعام ، وأطيب الشراب ، وأفخر الثياب ..

فلما آلت اليه الخلافة حاول أن يدفعها عنه ليخلص لحياته المترفة : أميرا جميل الطلعة ، نحيلا ، أبيض البشرة ، حسن الوجه ، مهيبا ، محبا للغناء ، مولعا بالقراءة ، وبصناعة الألحان ، ورعا عن المحرمات على الرغم من كل المغريات !

ولكن المسئولية أدركته على غير رغبة منه .. فاذا الأمير المترف المتنعم يتحول فجأة الى راهب مخشوش ، واذا ضحكاته التى جلجلت فى أرجاء قصره ، تغيض فى دموع غزيرة من خشية الله ، ومن هول ادراكه لمسئولية الراعى عن الرعية .. واذا هو لا يستمع لصوت يتغنى بعد الا اذا انطلق بترتيل القرآن الكريم ..

واذا هو يأمر بجمع كل ما يملك من ثياب ودواب وعطور وزينة ، فيبيعها جميعا ، ويضع ثمنها فى بيت المال ، ولا يستبقى غير الكتب ..

حقا .. أصبح الأمير المترف المثقل بالمتاع ، راهبا للحكم ،

يثقله الاحساس بالمسئولية عن اقامة العدل بين الرعية والاحسان للناس ..

واذا هو ينتزع من أهله الأمويين الأمراء كل ما أترفوا فيه ، ليرده الى أصحابه أو الى بيت المال !

وهكذا تحول أهله الى شر عدوه ، فلم يمهلوه .. وما لبثوا أن دسوا له السم ليتخلصوا منه ، وليستردوا ما سلبهم !

وهكذا لم يتح له أن يحكم الا ثلاثين شهرا ، ولكنه ملأ الدنيا خلالها عدلا ، بعد أن ملئت ظلما ..

فلما قضى شهيدا للعدل والاحسان ، لم يكن بعد قد بلغ الأربعين ، وقد بدد نور تقواه ظلمات الجور ، وأغنى رعاياه بفضل الله ، فلم يعد الأغنياء يجدون فقيرا واحدا يخرجون له الزكاة !!

● **نشأته وثقافته وشخصيته :**

هو « عمر بن عبد العزيز » بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف .

كان يقول عن نفسه : « ان لي نفسا تواقة » .. فما كان قبل الخلافة ينال شيئا الا تاق لما هو أفضل ، فيناله ، فيتوق الى ما هو أفضل لينال ، وهكذا ... حتى اذا نال الخلافة وهى شرف الدنيا ، تاق الى شرف الآخرة ، فأحيا السنة وأمات البدعة ، وسلك طريق المتقين الزاهدين ، ونظر فيمن سبقه من الخلفاء ، فجاوز خلفاء بنى أمية الى الخلفاء الراشدين ، وانه ليطالع سيرهم فيقول للناس : « أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب » .

ولكن عمر بن عبد العزيز يتوق الى أن يسير فى الناس سيرة جده « عمر بن الخطاب » !

بحث عمر بن عبد العزيز عن سيرة على وتشبه به فى زهده وصدق عزمه ، وبحث فى سيرة الفاروق عمر ليتشبه به فى عدله وحكمه ، وبحث فى سيرة أبى بكر ليتخذ منه الأسوة فى حسن بلائه فى الله ، ودرس تاريخ عثمان ليترسم خطاه فى بذله وتقاه .

والأسوة الحسنة لعمر بن عبد العزيز هو الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، فهو امامه والمثل الأعلى ، ثم من بعده الخلفاء الأربعة الراشدون ، وهم بالرسول وعلى آثاره مقتدون ..

وما برح عمر بن عبد العزيز يقتدى بالراشدين ، حتى أجمع أئمة الاسلام أنه منهم .. قالوا من بعده : « الخلفاء خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ثم عمر بن عبد العزيز »[1] .

كان قد شاع فى عهد عمر بن الخطاب خلط اللبن بالماء ، فنهى رضى الله عنه الناس عن هذا الغش ، وأنذر من يغش اللبن بعقاب شديد ..

وخرج ذات ليلة يتفقد أحوال الناس فى المدينة كما تعود ، فاذا امرأة تقول لابنتها « ألا تمذقين (تخلطين) اللبن بالماء » ؟ فقالت الفتاة : « كيف أمذق يا أماه وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق » ؟ فقالت الأم : « قد مذق الناس فأمذقى ، فما يدرى أمير المؤمنين ، وهو لا يرانا » . قالت الفتاة : « ان كان عمر لا يعلم ولا يرانا فاله عمر يعلم وهو يرانا ، ما كنت لأفعله وقد نهى عنه » .

وانصرف عمر معجبا بخلق الفتاة ، فلما أصبح دعا ابنه عاصما فروى له ما كان من أمر تلك الفتاة ووصف له مكانها ، وطلب منه أن يذهب فيأتيه بخبرها .. فاذا هى من بنى هلال ، فقال عمر لابنه عاصم : « اذهب يا بنى فتزوجها ، فما أحراها أن تأتى بفارس يسود العرب » !

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوى : **خامس الخلفاء : عمر بن عبد العزيز** . (القاهرة : مكتبة غريب) ص ٦ ــ ٧

فتزوجها عاصم بن عمر بن الخطاب ، فولدت له ليلى المعروفة باسم أم عاصم ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فأنجبت ولدا أسمته باسم جدها عمر .. فكان « عمر بن عبد العزيز » ..

قال امام مصر الليث بن سعد : « الفراسة فراسة عزيز مصر في يوسف النبي عليه السلام حين قال : (ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين) .. وفراسة عمر بن الخطاب في الهلالية حين قال لولده : « تزوجها والله ليوشكن أن تأتي بفارس يسود العرب » فأتت بعمر بن عبد العزيز ، وفراسة سليمان بن عبد الملك في عمر بن عبد العزيز حيث قال : والله لأعقدن عقدا ليس للشيطان فيه نصيب ، فعقد لعمر بن عبد العزيز (ولاه الخلافة من بعده)[1] !!

ولقد استيقظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات صباح ، فمسح النوم عن وجهه وعرك عينيه وهو يقول : « من هذا الذي من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر » !؟ يرددها مرات .. وقال عبد الله بن عمر عم أم عمر بن عبد العزيز : « ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر بن الخطاب في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا » ؟! وقال مرة أخرى : « يا عجبا ! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر » !

وقال عمر بن الخطاب : « ان من ولدي رجلا بوجهه شج (بقية جرح) يلي (يتولى الخلافة) فيملأ الأرض عدلا » ..

وتحقق هذا كله ، فولي عمر بن عبد العزيز ، حفيد عاصم بن عمر ابن الخطاب ، فملأ الدنيا عدلا ، كما ملأ الدنيا علما ، حتى لقد قال عنه الامام أحمد بن حنبل : « ما أدري قول أحد من التابعين حجة الا قول عمر بن عبد العزيز » .

---

(١) المرجع السابق . ص ٩

ولد عمر أثناء ولاية أبيه عبد العزيز بن مروان عليها . وقد أنفق عمر طفولة سعيدة فى مصر ، فهو ابن أمير مصر الذى استقل بخراجها ، والذى ملك فيها الضياع الواسعة . وقد ظل عبد العزيز يحكم مصر عشرين عاما . وقد وقع فى عهده وباء الطاعون ، فترك العاصمة ، ومضى بأهله الى حلوان وهى حينئذ قرية صغيرة بين النيل والجبل ، فأعجبه جوها ، فأنشأ مدينة جميلة ذات حدائق ، واتخذها عاصمة له .. وفى هذه المدينة الجميلة قضى عمر طفولته وصباه ، وأحسن أبوه تأديبه ، واختار له مربين من أكبر علماء مصر وفقهائها ، فحفظوه القرآن الكريم قبل أن يبلغ العاشرة ، وعلموه الحديث وعلوم الدين واللغة والخط والحساب ، حتى اذا بلغ الحلم أرسله أبوه الى المدينة المنورة ، ليتلقى على علمائها .

وفى المدينة عرف ما لم يتح له أن يعلمه فى مصر قط ، وهو تحت رعاية والده الحازم اليقظ .

عرف أن مروان بن الحكم ، جده لأبيه ، قد غلب أولاد عمومته بنى سفيان على الملك ، فأصبح أميرا للمؤمنين وانتزع الخلافة من أيدى بنى أمية .

وبعد حروب وفتن أغرقت فيها دماء المسلمين الأرض الحرام ، ودمرت فيها جيوش عبد الملك بن مروان بقيادة الحجاج بيت الله الحرام ، ظفرت هذه الجيوش بعبد الله بن الزبير ، فقتله الحجاج فى الكعبة شر قتلة هدم الكعبة على رؤوس من تعلقوا بأستارها ولاذوا بها ، وأرسل رأس ابن الزبير الى عبد الملك بن مروان[1] ..

هكذا استقر ملك بنى مروان .. وكان مروان قبل أن يموت قد عهد الى ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز .

كان الفتى عمر الذى امتلأ رأسه وقلبه بالقرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم الدين وسيرة جده عمر بن الخطاب ، يصغى الى هذا

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١١

التاريخ الذى لم يعرفه من قبل قط ، فينتفض سخطا على الحجاج لأنه هدم الكعبة .. ويظل الفتى عمر يبكى أحر بكاء أولئك الصحابة الصرعى وآلاف القتلى الذين استقر على أشلائهم عرش مروان !

وسمع الفتى عمر من أهل المدينة وعلمائها قصصا مرعبة عما صنعه الحجاج بهم ، حين دخلها غازيا بعد أن ذبح عبد الله بن الزبير ، ومكن لعبد الملك فى الأرض المباركة التى امتزج ترابها الطاهر بالدماء الزكية المهراقة !

وكان الفتى عمر حريصا على أن ينتفع بعلم فقهاء المدينة ، فقعد الى مشايخها ، وتجنب شبابها ، ونهل من العلم حتى أكبره شيوخه .

وسأله أحد شيوخه عن علامة فى وجهه وما سببها .. فلما روى عمر لشيخه قصة هذه العلامة ، وما سمعه من أبيه ، قال الشيخ : « أنت اذن أشج بنى مروان ؟! ستلى الخلافة يوما فتملأ الأرض عدلا ونورا بعد أن ملئت ظلما وظلاما »[1] .

ولم يكن شغل عمر فى المدينة علوم الدين فحسب ، ولكن أشياخه وجهوه الى علوم اللغة ، والى الشعر وهو ديوان العرب ، وعلموه أن علوم الشريعة والدين لن تستقيم لدارس أو عالم حتى يتقن أداة التعبير وهى اللغة ، وحتى يستطيع التعبير الجميل الذى يؤثر بموسيقاه فى القلوب والعقول ، وان من البيان لسحرا ..

وبعد سنوات عاد الفتى عمر الى مصر ، وقد نضج عقله بما درسه واستوعبه وحفظه وفقهه من القرآن والحديث وعلوم الدين واللغة وفنون الأدب ..

عاد ليجد عند أبيه مجالس الشعراء والفقهاء والعلماء .. فاختلط

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١٣ .

بهم ، وثقفته مناظراتهم .. وتوثقت علاقاته ببعض كبار الشعراء الذين كانوا يأتون مصر ليظفروا بالجوائز السخية من أميرها الكريم عبد العزيز ابن مروان .. كانوا يفدون من الحجاز الى مصر فيقيمون فى ضيافة أميرها أياما ، وينشدونه الشعر ، ويحاورونه فى أجود ما تركه الأقدمون من شعر ، ثم يعودون وقد خلع عليهم الحلل ، ومنحهم الأموال والعطايا .

مات عبد العزيز بعد أن حكم مصر عشرين عاما ، فأرسل عبد الملك الى عمر ، فأقام معه فى دمشق ، وخلطه بأولاده .

ولاحظ أولاد عبد الملك أن أباهم يقرب عمر بن عبد العزيز حتى ليكاد يفضله عليهم جميعا الا الوليد ، فكلموه فى ذلك ، فقال لهم أبوهم : « ومالى لا أحبه ، وهو أشج بنى مروان وسيلى الخلافة يوما فيرفع ذكر بنى مروان » .

أرسل عبد الملك جيوشه شرقا وغربا ، فحققت الانتصارات وفتحت كثيرا من البلاد ، ونشرت فيها الاسلام .. هذا حق ، ولكن صهيل الخيول الزاحفة بفرسان التنوير ، والأبواق العازفة بالانتصارات العظام ، ودوى الطبول المبشرة بروعة الفتوحات ، كل أولئك ما كان ليستطيع أن يغمر صرخات المظلومين ، أو يعلو على الأنين الخافت الذى يتصاعد من وراء أسوار السجون ، ومن أغوار رطوبة الكهوف المظلمة ، وما كان بقادر على أن يخفى صلصلة الأغلال !!

ظل عمر الفتى المرهف يسمع من خلال رجع البشائر بالانتصارات ، أصداء الشكاوى الفاجعة تتصاعد على الرغم من كل شىء ، من المطحونين والمعذبين ، فتزلزل الضمائر الحية ، وتعصر القلوب الشريفة .

ولكم بث الفتى عمر عمه عبد الملك شكاواه ، وما كان أحد ليجرؤ على هذا الا عمر !.. وما كان عبد الملك يضيق به ، ولكنه كان كان يحب حديثه ، ويحب ورعه ، وغضبه لما يعتقد أنه الحق .

غير أن عبد الملك كان يحاول أن يعلم الفتى أن صناعة الملك تفرض أحيانا ما يأباه القلب الرحيم ، فللسياسة ضرورات تبيح كثيرا من المحظورات !!

وما كان عمر ليقتنع بهذا ، بل كان يتساءل : من من الخلفاء الراشدين الذين يجب أن يقتدى بهم الخلفاء من بعدهم ، تناقضت سياسته مع العدل والاحسان ؟!

قال الفتى لعمه عبد الملك : « ان الامامة قامت على الشورى والعدل والاحسان والرحمة » ..

وألح الفتى فى الشكوى من جرائم بعض الأمراء ، وأبطشهم حينئذ هو الحجاج أمير العراق .. شكا بطش الحجاج بكل من يخالف رأيه ، ثم سفهه فى الانفاق من مال المسلمين على كل من يريد أن يصطنعه ويشترى رأيه !! وهذا كله ليس من السياسة الشرعية ، ولا من أصول الامامة ، وليس من الاسلام فى شىء !! وكان أهل كثير من ضحايا الحجاج يلوذون بعمر ويستشفعونه ، منذ عرفوا مكانته عند عبد الملك .. ولكم من مرة بكى عمر اشفاقا على الناس ، وهو يعرض على عمه آلام المعذبين !!

وظل عمر يجهر بنقد الحجاج أمام عمه عبد الملك ، ويتمنى عليه أن يعزله ، ولكن عبد الملك كان يرفض ، ويوصى بنيه وعمر بارضاء الحجاج فهو صاحب الفضل عليهم ، ولولاه لما قامت دولتهم ! قال : « أكرموا الحجاج فانه الذى وطأ لكم هذا الأمر ، ودوخ لكم البلاد ، وأذل لكم الأعداء » .

وذات مساء كان عبد الملك مع سماره وفيهم عمر بن عبد العزيز ، فسألهم عن خير زوج يختاره الأب لابنته ، فقال كل رجل من القوم ما قال ، وسكت عمر ، فقد كان يفكر فى بنت عمه فاطمة بنت عبد الملك ، ولكنه لا يعرف كيف يخطبها .. وانه ليشعر بحرج كبير

فى أن يتقدم لخطبتها ، على الرغم من أنه كان لا يكتم عمه رأيا .. ولقد قدر الشاب أن أباها عبد الملك ربما كان ادخرها لأحد شباب بنى أمية ، من أمراء الأمصار الغنية ..

قال عبد الملك : يعجبنى قول الحسن البصرى لما جاءه رجل يسأله : « ان لى بنية ، فمن ترى أن أزوجها » ؟ قال الحسن : « زوجها ممن يتقى الله ، فان أحبها أكرمها ، وان أبغضها لم يهنها » .

واستحسن الجميع ما سمعوه من عبد الملك .. فالتفت الى عمر وقال : « يا ابن أخى ، قد زوجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة » .

ولم يصدق عمر نفسه ، واعتقل الفرح لسانه لحظه ، ثم قال : « وصلك الله يا أمير المؤمنين ، فقد كفيت المسألة ، وأجزلت فى العطية » .

وجهزها عبد الملك بأحسن الرياش والثياب ، وبنى لها قصرا كبيرا بحديقة غناء بضاحية من ضواحى دمشق اسمها دابق ، وجعل ثوب الزفاف من الحرير المنسوج بخيوط الذهب المرصع باللآلىء ، وأهداها جواهر نفيسة بمائة ألف دينار !..

وفى قصر العروسين بدابق ، قضى العروسان أجمل أيام العمر ، ونعما بسعادة لم يعرفاها من قبل ، كانت فاطمة على روعة جمالها ، ذات عقل وكمال .

ولم يعد عمر يستطيع أن ينقطع عن مجالس عمه ، فاذا تغيب لبعض شأنه استحضره عمه ، ليستأنس برأيه ، ويأتنس بورعه وتقواه وظرفه .. وقد شهد عمر فى مجالس عمه محاورات الفقهاء والشعراء ، وكان لعبد الملك بصر بالحياة والحكمة والشعر ، وكان يعشق محاورة العلماء والشعراء ، ثم يقول رأيه آخر الأمر ، وكأنه فصل الخطاب .

ومرض عبد الملك ، فجمع أبناءه فأوصاهم ، فكان مما أوصاهم به :

« ... انظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز ، فأصـــدروا عن رأيه ، ولا تخلوا عن مشورته ، اتخذوه صاحبا لا تجفوه ، ووزيرا لا تعصوه ، فانه ما علمتم فضله ودينـــه وذكاء عقله ، فاســـتعينوا به على كل مهم ، وشـــاوروه فى كل حادث » .

ودخل عليه عمر بن عبد العزيز ، فهش له وناداه : « أبا حفص » ! وهى كنية يكرمه بها لأنها كنيـــة « عمر بن الخطاب » .. قال عبد الملك: « يا أبا حفص ، استوص خيرا بأخويك ، الوليـــد وســـليمان ، ان زلا فشـــلهما (ارفعهما) ، وان مالا فاقمهما ، وإن غفلا فذكرهما ، وان ناما فأيقظهما ، وقد أوصيتهما بك ، وعهدت اليهما ألا يقطعا شيئا دونك » .

فقال عمر بن عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين أوصهما بكتاب الله فليقيماه فى عباده وبلاده ، وبســـنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليلزماها ، ويحملا الناس عليها » . فقال عبد الملك : « قـــد فعلت . وليى فيكم الله الذى أنزل الكتـــاب وهو يتولى الصالحين » .

وسكت عبد الملك هنيهة ثم قال : « وقد علمت يا عمر مكان فاطمة من قلبى ، وأنى آثرتك بها على جميع آل مروان لفضلك وورعك ، فكن عنـــد ظنى بك ، ورجـــائى فيـــك ، وقـــد علمت أنك غير مقصر ، ولا مضيع حقها ، ولكن الله قـــد قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين » .

ثم التفت الى ولى عهـــده الوليد ، وقال : « أخرج أنت من بعـــد موتى الى الناس ، ولا تعصر عينيك كمـــا تعصر الأمة الحمقاء عينيها ، والبس جلد النمر ، واقعد المنبر ، وادع الناس الى بيعتك ، فمن مال بوجهه عنك كذا ، فقل له بالسيف كذا ، واســـمع البعيد ، وأوصيك بالحجاج خيرا ، فانه هو الذى وطأ لكم المنابر ، وكفاكم تقحم الجرائم ، وكونوا فى الحرب أحرارا ، وكونوا للمعروف منارا ، فإن المعروف يبقى أجره وذخره وذكره ، وضـــعوا معروفكم عنـــد ذوى الأحساب ، فانهم أصـــون له »[1] .

---

(١) **المرجع الســـابق** . ص ٢٣ ــ ٢٤

كان أول ما عمله الوليد بعد أن توفى أبوه ، أن دعا وجوه الدولة الى المسجد الجامع ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « انا لله ، وانا اليه راجعون ، والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة !! أيها الناس عليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فان الشيطان مع الفرد ، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه (أى مرض نفسه) ضربنا الذى فيه عيناه (أى رأسه) ومن سكت مات بدائه ، قوموا فبايعوا » .

فبايعه كل من فى الجامع .. ثم أمر فهدمت المبانى من قصر عبد الملك الى قبره ، لكى تسير الجنازة فى خط مستقيم ، ولكى يكون القبر مواجها للقصر .. ثم أرسل الى كافة أمصار الدولة لأخذ البيعة له .

وجاء من المدينة رسل يشكون ظلم أميرهم واستبداده ، فرأى الوليد أن يولى عليهم عمر بن عبد العزيز ، وقد اشتهر بحبه للعدل والاحسان ، عسى أن يصلح ما أفسده أمير المدينة ..

كان عمر فى نحو الخامسة والعشرين من العمر حين أصبح أميرا للمدينة ومكة والطائف ..

وفرح أهل المدينة بالأمير الشاب الورع ، فقد عرفوه طالبا تقيا يلزم الفقهاء والعلماء من شيوخ المدينة ، ويتخذ الأسوة فى سيرته من كبار الصحابة .

أصبح الحجاز فى عيد !..

خفقت فى وجوه مع الأنسام زفرات الخلاص ، بعد أن تنفس أهله الصعداء ، اذ أنقذهم الله من البرحاء !

أما أهل المدينة المنورة عاصمة الحجاز ، فقد أقبل بعضهم على بعض يتعانقون ، ويحمدون الله الذى رفع عنهم اصرهم ، والأغلال التى

فى أعناقهم .. ثم مضـوا الى مسـجد الرسول الكريم يغسلون عتباته بدموع الفرح والحمـد ، ويسجدون لله شكرا أن أتاح للخليفة الجديد انقاذهم من الأمير الطاغية المسـتبد ، هشـام بن اسماعيل ، الجبـار الشـقى العنيد ، ليولى مكانه الوديع الطيب عمر بن عبد العزيز ، الذى عرفوه منذ سـنوات ، طالب علم ، يوقر أشـياخهم ، ويعرف فضلهم .

وذهبوا أرتالا يسـلمون على عمر ، ويرحبون به ، حتى ضاقت بهم دار جده مروان الفسيحة الضخمة ، التى اتخذها مقرا للامارة ، ومستقرا للحيـاة ..

وفى الحـق أن عمر لم يكن أقل سـعادة منهم ، فما كان يتـوق لأكثر من امرة المدينة التى يحبها أكثر من كل المدائن ، والتى طلب فيها العلم يافعـا ، والتى يشـعر كلما أتاها أن صـدى جليـلا من عصر النبوة المبارك يهمس فى آفاقها ، فيوقظ فى نفسـه التواقة ، أشـواقا محتـدمة الى روعة تلك الأيام الباهرة من الصفاء والورع والحرية . تلك الأيام المضيئة بالجلال ، والعـدل ، والاحسان ، المفعمة بالتقـوى ، وحب الانسـان لأخيه الانسـان !

لكم يتمنى الأمير الشاب أن يعيد للمدينة بهاء تلك الأيام المشرفة بالصـالحات ، والبهجة ، وبآثار النبوة ، ونبالة الصحابة !..

انه ليعلم ما عاناه أهل المدينة منذ انقضى زمن الخلافة الراشدة ، وأتى عصر الملك العضوض !..

وانه ليأسى حتى ليبكى أسـفا ، كلما تذكر أن المدينة المبـاركة قد أبيحت ذات يوم لجنـد الشـام ، عنـدما طالبت يزيد بن معاوية بالعـدل والاصـلاح ، وخلعت بيعته ، فأرسـل اليها جيشـا كثيفا من جبارين غلاظ ، فلمـا قهروها ، أباحها لهم ثلاثة أيام ، فجاسـوا خلال الديار ، يفسـدون فيها ، وينهبون ، ويسـفكون الدماء ، حتى قتلوا عشرة آلاف رجـل ، منهم ثمانون من صحابة رسول الله ، ولم ينـج الا آل البيت ، اذ اعتزلوا الفتنة وأغلقوا عليهم دورهم !

انه ليشعر بوطأة هذا العار كما يشعر به بنو مروان الآخرون ، الذين آثروا أن يغسلوا أيديهم من كل الدماء التى سفكها بنو عمهم من آل أبى سفيان .. دماء أهل المدينة ، ودماء أولاد الرسول فى كربلاء !

لكم يتمنى الأمير الشاب أن يأسو جراحات مدينة الرسول ، وجراحات آل بيته الأبرار ، بعد أن أصمتهم سهام الفجار !..

ولم يكد الأمير الشاب يفرغ من المهنئين ، حتى دعا اليه عشرة من كبار فقهاء المدينة وعلمائها ، كان قد استخلص من تحرية آراء أهلها ، أن هؤلاء العشرة الكرام ينوبون عن المدينة حقا ، ويمثلون كل ما يضطرب فيها من آراء ، وأفكار ، ومذاهب ، واتجاهات ، ومصالح ..

كان الفقهاء العشرة أصحاب علم ، وفقه ، ومعرفة واسعة ، لا أصحاب مال أو حسب . واذا اطمأن الى أنهم مجلس نواب المدينة ، جعلهم مجلس شوراه ، وألزم نفسه اتباع الشورى ، فقد تعلم فى المدينة منذ نحو عشر سنوات أن الشورى تلزم الحكام والمحكومين على السواء ..

واذن فقد مضى الزمن الكئيب الذى كان فيه الناس يتخافتون بالشكوى ، حذر بطش الحاكمين ، فها هو ذا أمير ينهى عن ذلك ، لأنه تفقه فى الدين وهو طالب بالمدينة ، فعرف ما أوجبه الاسلام على الحكام والمحكومين ، وعرف أن صدق المشورة مما يؤجر عليه المشيرون .

فلقد التقى عمر بمجلس شوراه من الفقهاء والعلماء ، وأظهر لهم ما يكنه لهم من اكبار وتقدير ، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال : « انى انما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا لى على الحق . انى لا أريد أن أقطع أمرا الا برأيكم أو برأى من حضر منكم . فان

رأيتم أحـدا يتعدى أو بلغكم من عامل لى ظلامة ، فأخرج من بلغه هذا الا أبلغنى »[1] .

وصـدق الأمير الجديد ، فلم يقطع برأى دون هؤلاء العشرة ، ولم تبلغه ظلامة الا أزالها ، وعاقب الظالمين من عماله .

ثم أقبل عمر على الاصلاح .. فلقد أحسن الوليد باختيار عمر أميرا للحجاز : المدينة ، ومكة ، والطائف ..

ذلك أن أهل المدينة ، وهى عاصمة الحجاز حينئذ ، كانوا قد عانوا من المظـالم ما أسـخطهم على الأمويين جميعـا من بنى أبى سـفيان وبنى مروان ..

ولأهل المدينة حينئذ مكانة خاصـة عند المسلمين جميعـا ، فهم يتبعونهم ، حتى لقد أصبحت عادات أهـل المدينـة وأعمالهم وأعرافهم مصدرا من مصادر التشريع عند كثير من الفقهاء فى ذلك الزمان .

من أجل ذلك حرص الوليد ـ وكان ذكيـا صاحب رأى وحصافة ونظر فى السـياسة ـ على استرضاء أهل المدينة ، فلئن رضوا عنه ، لرضى عنه الناس جميعا .. فاختار من بين أمراء بنى أمية من له بالمدينة وشـائج ، وهو « عمر » : فهو حفيـد عمر بن الخطاب ، وهو قد تلقى العلم فى المدينة ، وله بأشـياخها وأهلها مودات ، وهو يحتفـظ فى أعماقه للمدينة بذلك الحب الذى يخالجه الشـعور بالعرفان ، هو من بعـد ومن قبل ، صاحب ورع وتقوى وأخلاق يحبهـا أهل المدينـه الطيبـون .

وفى حب عارم للمدينة ولتراثها الجليل العظيم ، ولأهلهـا الكرام البررة الصـامدين ، أقبـل الأمير الجديد على الاصلاح ..

---

(١) **المرجع السـابق** ـ ص ٢٩

بدأ الاصلاح باطلاق السجناء من غيابات السجون بالمدينة ومكة والطائف ، ومن خلف أسوارها التى خنقت أنين المظلومين منذ حين .. هؤلاء السجناء جميعا ، من أصحاب الآراء التى تخالف رأى النظام الذى أقام دولته ، بعد مصرع آخر الأربعة الراشدين ، رضى الله عنهم.

انطلق عمر ينشر ضوء الحرية فى الغياهب الموحشة ، على وهج سطع من شعار جده عمر بن الخطاب : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟!..

وملأت الفرحة قلوب أهل الحجاز ..

ثم ان الأمير الجديد سعى الى « على زين العابدين » بن الحسين والى « سعيد بن المسيب » ، معتذرا اليهما باسم الدولة نفسها ، عما اقترفه ضدهما أحد عمالها ، وهو « هشام » ! الأمير المعزول ، وما زال بهما يسترضيهما ، حتى أعطياه الرضى ..

عزل عمر قاضيا كان يعمل مع الأمير المعزول هشام بن اسماعيل ، ذلك أنه كان فاسد الذمة ، فكان اذا حكم لا يحكم بين الناس بالعدل ، بل بما يرضى الأمير !

وعين عمر قاضيا جديدا ورعا من علماء المدينة هو « أبو بكر بن عمرو ابن حزم » ، قائلا : « لا ينبغى للمرء أن يكون قاضيا حتى يكون فيه خمس خصال : أن يكون عالما قبل أن يستعمل ، مستشيرا لأهل العلم ، ملقيا للطمع ، منصفا للخصم ، مقتديا بالأئمة » .. وقد حرج عليه أن يحكم فى حالة الغضب أو القلق أو التعب ، كما أمره ألا يقطع فى أمر حتى يسأل سعيد بن المسيب ليدله على رأى عمر بن الخطاب فيها أو فى أشباهها ، فيعمل بالقياس .. وقال له : « الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان ضره فاجتنبه ، وأمر أشكل أمره عليك فرده الى الله »[1] .

---

(١) **المرجع السابق** . ص ٤٠

وكتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز يأمره بتوسيع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان الوليد صاحب بناء . وقد أراد الوليد أن يعمر المدينة وينشىء فيها المبانى الجديدة ، ارضاء لأهلها .. فبدأ بالمسجد النبوى ، وشرع فى توسيعه وعمارته . وفى هذا ما يبهج أهل المدينة والمسلمين جميعا ..

ودعا عمر بن عبد العزيز مجلس شوراه من العلماء ، ودعا وجوه الناس وأهل المدينة ، وقرأ عليهم كتاب الوليد الذى أمره فيه بأن يدخل فى المسجد حجرات أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن يشترى ما حول المسجد من المبانى ، فيهدمها ويضمها الى مساحة المسجد . وباع أصحاب المبانى المجاورة للمسجد مبانيهم وأخذوا أثمانها ، وكانوا يبكون كلما رأوا الهدم .

وكتب عمر الى عماله على بلدان الحجاز ، ليعبدوا الطرقات من بلادهم الى المدينة ، لتيسير الطريق على زوار المسجد النبوى الشريف ، وأمرهم أن يحفروا الآبار فى بلادهم ، كما أمر بحفر آبار جديدة بالمدينة .

وخلال العمل فى عمارة المسجد ، اعتاد عمر أن يتفقد العمل . وكان أحيانا حين يفرغ من تفقد العمل ، يجلس فى الروضة الشريفة يرتل القرآن ترتيلا .. وكان حسن الصوت ..

وعينه الوليد أميرا على الحج ، فلما وقف على عرفات شرع يدعو والناس تردد دعاءه : « اللهم انك دعوت الى حج بيتك ، ووعدت به منفعة على شهود مناسكك ، وقد جئتك . اللهم اجعل منفعة ما تنفعنى به أن تؤتينى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وأن تقينى عذاب النار »

وفى الحق أن اللهو كان قد شاع فى الحجاز .. وفى هذا

الجو المضطرب بأهل الفقه وزحام المترفين والزهاد ، والجاد والتوابين ، عاش الأمير عمر بن عبد العزيز ، يحاول أن يسير فى المدينة ، سيرة جده عمر بن الخطاب ..

ودرس الأمير الشاب ما كان يصنعه جده مع أصحاب البلاء الحسن ، قبل أن يشيع اللهو والمجون ، فى عصر كان رؤساء الرعية فيه من أعلام الصحابة ، والاسلام بعد جديد ، وهو فى حاجة الى أن يفرض تعاليمه وهيبته على تقاليد البلاد المفتوحة من امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم ..

لقد تعلم عمر بن عبد العزيز فيما تعلم من عم أمه عبد الله بن عمر ، أن عمر الفاروق كان يطالب المسلمين ألا يكونوا عونا للشيطان على مسلم أخطأ ، فلا يسقطوه ، بل عليهم أن ينصحوه ويرشدوه . فلقد تعلم عمر فيما تعلمه عن عمر بن الخطاب ، أنه كان على الرغم من ورعه وحزمه وشدته فى الحق ، أحرص على ارشاد المخطىء ، منه الى عقابه .

ولقد تعود عمر بن عبد العزيز أمير المدينة ، أن يتفقد أحوال الرعية تحت جنح الظلام ، كما كان يصنع جده عمر بن الخطاب . ومن خلال هذا التجول الليلى تعرف على كثير من أسرار المدينة ..

وعرف من خلال جولاته ، ليالى أنس خلف الأبواب المغلقة داخل البيوت ، فلم يعرض لأصحابها ، وقال لمن حوله من شرطته : « ما ضمت عليه البيوت فلا شأن لكم به » !.. وحرج عليهم أن ينتهكوا حرمة بيت أو يفضحوا أهله ..

ولكنه وجد بعض الملاهى التى فتحت أبوابها للرواد ، حيث يجهر أهل المجون داخلها بالشراب والاسراف فى اللهو . ورأى أن يطهر المدينة من الملاهى ، وأمر عمر بن عبد العزيز أن تكف الملاهى عن تقديم الرقص والخمر ، ولا بأس بالغناء وحده .

أقبل عمر بن عبد العزيز على مجالس العلم والفقه ، وكان لا يكتفى بمجالسة فقهاء المدينة ، بل دعا اليه فقهاء مكة ، وظل يدارسهم ويتلقى عنهم ، حتى فاقهم !

ولقد أحسن توزيع وقته بين مجالس العلم ، والنظر فيما تتطلبه مصلحة الرعية من أعمال ، وتفقد أحوالها والالتقاء بوجوه الناس وعامتهم ، ثم العبادة والقراءة .. وكان يؤم الناس فى الصلاة ، فكان يقتدى بصلاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفى الحق أنه تعلم الكثير من صحبة الفقهاء ، وبصفة خاصة الفقهاء من آل البيت . وكان أهل العلم والفقه قد أجمعوا على أن أوثق الأحاديث هى ما يرويها عميد آل البيت : على (زين العابدين) عن أبيه الحسين عن جده الامام على عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجهد عمر فى أن يحفظ هذه الأحاديث . وكما تلقى عن على زين العابدين الأحاديث تلقى عنه كثيرا من ضروب الحكمة .. ولكم تمنى عمر أن يجمع أحاديث الرسول ، ويدونها ، كيلا تضيع ، ويمحصها فينفى عنها الموضوع !! وكم من أحاديث وضعت على عهد أسلافه ، عندما احتدم الصراع بين بنى هاشم وبنى أمية !!

وكان الحجاج دائم الوقيعة بين عمر والوليد حتى أوغر صدر الخليفة عليه . فعزل الوليد ابن عمه عمر .. وحين علم عمر بأمر عزله ، فاضت أحزانه من أغوار نفسه ، من حيث يختلط الندم الجليل بالأسى النبيل !.. وقال وهو يغادر المدينة من خلال دموعه : « أخاف أن أكون ممن نفته المدينة » !.. فقد درس فيما درس من الأحاديث النبوية الشريفة ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أطلق على مدينته لقب « الطيبة » التى تنفى خبيثها !

ولم يكد عمر يبلغ دمشق ، حتى مضى الى القصر الذى بناه عبد الملك لابنته فاطمة ، وزفت فيه الى ابن عمها عمر ، وأنفق فيه

العروسان أجمل أيام حياتهما : بلا هموم ، ولا دسائس ، بعيدا عن كيد الحساد ، وكيد الحجاج .. ولم تكد فاطمة تستريح ، حتى قامت فتوضأت وصلت ، ودعت الله أن ينتقم من الحجاج . ولم تجد فى نفسها رغبة فى أن تزور أخاها الوليد ، فقد كانت غاضبة منه لما صنع بزوجها !

وزارت فاطمة زوجة عمر أخاها الوليد ، وظلت هى وزوجته أخت عمر تسفهان له الحجاج ، وتقبحان كيده .. ولم يتركا الوليد حتى رضى عن عمر ، فأرسل اليه يذكره بمكانه من عبد الملك ، ويطلب منه أن يبقى معه فى دمشق ، وزيرا له ..

حاول عمر بن عبد العزيز أن ينهض بعمله وزيرا للوليد ، ولكن الوليد لم يمكنه من ذلك ، فلا هو شاوره فى الأمر ، أو فى أى أمر ، ولا هو سمح له بأن يشير عليه !!

وأدرك عمر أن الوليد ، انما عزله واستدعاه الى دمشق ليبقيه تحت رقابته ، فقد بث حوله العيون والرقباء ، وما كان يدعوه الى مجلس الملك الا ليفرض عليه الصمت !

ولكن عمر كان ينفق أيامه ولياليه فى القراءة والتأمل والتدبر والتفكر ، ويكاد لا يجلس الى أحد غير امرأته فاطمة وأولاده ، ولا يكاد يشغل الا بالعلم وبتعليم ولده عبد الملك . ولقد يتاح له فى بعض الأحيان أن يقيم مجلس علم فى قصره ممن نجا من القتل والسجن : البقية الباقية القليلة من العلماء والفقهاء الصالحين ، الذين كانوا جاءوا من بلادهم ليلقوا عمر فى قصره ..

وكان اذا خلا الى نفسه بعد الصلاة ، أو اذا اطمأن الى من حوله ، قال متململا دامع العين : « ملئت الأرض جورا !! الوليد فى الشام ، والحجاج فى العراق ، وخالد القسرى فى مكة ، وعثمان بن حيان فى

المدينة ، وقرة بن شريك بمصر . اللهم قد امتلأت الأرض ظلما وجورا ، فأرح النـاس »[1] !

وذات يوم جاء البريد من مصر على الوليد بنبأ وفاة قرة بن شريك ، فحزن الوليد حزنا شـديدا عليـه ، ولم يلبث حتى جاء بريد العراق بموت الحجاج ، فكاد يغشى عليه من هول ما سمع ..

ودعا الناس الى المسجد بدمشـق ، فنعى قرة والحجاج .. واذ سمع عمر بن عبد العزيز النبأ سجد لله شكرا وصلى ركعتين .

لكم فرح الناس بالخلاص من الحجاج ، بقدر ما حزن الوليد عليه ، حتى لقد مرض مرض الموت !..

فقد كان الوليد يعتمد على الحجاج فى كل شىء . وعندما أراد أن يخلع أخاه سـليمان عن ولاية العهد ويجعل مكانه ابنه عبد العزيز ، كان الحجاج أول من أطاع ، فخلع بيعة سليمان ، وبايع لعبـد العزيز ابن الوليد . ولكن الحجاج قـد مات !!.. وأبى سليمان أن يخلع نفسـه ويتنازل عن ولاية العهـد ، وأبى أن يذهب الى دمشـق ليلقى أخـاه !

كان سليمان يومذاك يقود أحد جيوش الفتح فى بلاد الروم .. وتجهز الوليد بحملة ليسير الى سليمان فيخلعه قهرا . ولكن الوليـد هلك قبـل أن يبرح دمشـق ، وصـلى عليـه عمر بن عبـد العزيز ، فتربع على العرش سـليمان بن عبد الملك ، وكان بينه وبين عمر مودة وثقـة ..

عزم عمر أن يقنعه بعزل الطغاة من عمال الوليد ، واطلاق سراح السجناء ، وباعادة توزيع الثروة على الناس ، لكيلا يتخم أحد ، والآخر يهلك من الجوع ، وعزم أن يأخذ بيـده فى طريق أصـلح من طريق الوليـد .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٨

أشار عمر بعزل من بقى من عمال الوليد الذين عرفوا بالعسف ، فعزلهم سليمان جميعا ، وولى مكانهم حكاما صالحين ، اختارهم له عمر ، ونصحه باطلاق السجناء ، فأطلق من فى السجون وعفا عنهم جميعا ..

وكان سليمان قد جاوز الأربعين بعامين ، طويل القامة ، جميل الوجه ، فصيح اللسان ، معجبا بنفسه ، لا يحب سفك الدماء . وكان الناس يقولون : سليمان مفتاح الخير .. فقد أطلق الأسارى ، وأخلى السجون ، وأعتق فى يوم واحد سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم كسوة حسنة .

وقف عمر لكل خطأ بالمرصاد ، وشعر أن واجبه يقتضيه أن يحمل سليمان على الأخذ بالمشورة ..

ومرض سليمان من كثرة الطعام .. أصابته تخمة شديدة ، فقد ظل يأكل حتى سقط متخما .. فلما شعر بدنو أجله دعا اليه رجاء ابن حيوة ، فاستشاره فيمن يعهد اليه بولاية العهد ، فلم يجبه رجاء فى بادىء الأمر ، ولكن المرض اشتد على سليمان .. فلما أعاد سؤال رجاء قال له رجاء : « انه مما يحفظ به الخليفة فى قبره أن يستخلف الرجل الصالح » . ولم يشر عليه رجاء بأحد !

وفى اليوم التالى قال سليمان لرجاء : « أعرض على ولدى فى ملابس الملك » . وكان عمر حاضرا ! فجمعهم رجاء ، وكانوا كلهم صغارا فى أسنان متقاربة ، وكانوا أربعة عشر ولدا من نساء مختلفات ، فلما ألبسوهم الأردية والطيلسانات أقلقهم ذلك ، فتعثروا ، ووقع منهم من وقع باكيا !!

فنظر اليهم سليمان وهمهم : ان بنى صبية صغار ، أفلح من كان له كبار ..

فقال عمر : « يا أمير المؤمنين ، يقول الله تبارك وتعالى : **« قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى »** .

فحدث سليمان نفسه أنه لا سبيل الا أن يعهد لعمر بن عبد العزيز ، فقال : « يا رجاء ، لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب » !

فلما كان الغد أشتد الوجع على سليمان ، فدخل عليه بعض أهل بيته وفيهم عمر يعودونه ، وعنده رجاء ، فرآوا به الموت ، فخرجوا وتركوا عنده رجاء . وتخلف عمر ، وأشار الى رجاء بعينيه أن يلحق به ، فقال له : « يا رجاء ، انى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه الا سيعهد ، وأنا أناشدك الله ان ذكرنى بشيء من ذلك الا صددته عنى ، وان لم يذكرنى ألا تذكرنى له فى شيء من ذلك » .

فقال رجاء مموها : « لقد ذهب ظنك مذهبا ما كنت أحسبك تذهبه .. أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى شيء من أمورهم » ؟!

وعاد رجاء الى سليمان ، فأمر بأدوات الكتابة ، وجلس فى فراشه ورجاء يسنده ، حتى كتب بيده : « من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، انى وليته الخلافة من بعدى ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم » .

وختم سليمان الكتاب ، وأرسل الى صاحب الشرطة أن يأمر أهل بيته جميعا فليجتمعوا . وقال لرجاء : « اذهب بكتابى هذا اليهم فى اجتماعهم ، فأخبرهم أنه كتابى ، ومرهم أن يبايعوا من وليت » قالوا : « سمعنا وأطعنا » . ثم قالوا : « ندخل فنسلم على أمير المؤمنين » . فدخلوا ، فقال لهم سليمان : « هذا الكتاب هو عهدى فاسمعوا وأطيعوا ، وبايعوا لمن سميت فى هذا الكتاب » . قال رجاء : « فبايعوا رجلا رجلا . فلما تفرقوا جاءنى عمر بن عبد العزيز فقال : « ان سليمان كانت لى به حرمة ومودة ، وكان بى برا لطيفا ، فأنا أخشى أن يكون قد أسند لى من هذا الأمر شيئا ، فأنشدك الله وحرمتى ومودتى الا أعلمتنى ان كان ذلك حتى أستعفيه الآن ، قبل أن يأتى حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة »[1] .

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١٠٨

قال رجاء فأبيت ، وقلت : « لا والله لا أخبرك حرفا واحدا مما أسر الى أمير المؤمنين » .

ودخل رجاء على سليمان فوجده يحتضر ، فأغمض عينيه وغطاه ثم أغلق الباب ، ومضى .

قال رجاء : « وأجلست على الباب من أثق به ، وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه ، ولا يدخل على الخليفة أحدا . ثم خرجت وأرسلت الى صاحب الشرطة ، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا فى المسجد ، فقلت : بايعوا على ما أمر به ومن سمى فى هذا الكتاب المختوم . فبايعوا رجلا بعد الآخر .

قال رجاء : فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيت أنى قد أحكمت الأمر ، قلت : قوموا الى صاحبكم فقد مات . قالوا : انا لله وانا اليه راجعون . وقرأت عليهم الكتاب ، فلما انتهيت الى ذكر عمر ، حبا هشام بن عبد الملك على ركبتيه وقال : هاه !.. فسل رجل من أهل الشام سيفه وقال : تقول لأمر قضاه أمير المؤمنين هاه ؟! فنادى هشام : لا نبايعه أبدا ! قلت : أضرب والله عنقك . فلما قرأت : ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر بن عبد العزيز ، قال هشام : سمعنا وأطعنا ، وقام يجر رجليه فبايع ، وقال الناس : سمعنا وأطعنا ، وقاموا فبايعوا عمر بن عبد العزيز .

قال رجاء : فأخذت عمر وأجلسته على المنبر وهو يقول : « انا لله وانا اليه راجعون » ، وهشام يسترجع لما أخطأه . فلما انتهى هشام الى عمر قال « انا لله وانا اليه راجعون حين صار هذا الأمر اليك دون ولد عبد الملك » !

ونزل عمر من على المنبر وهو يقول : « انا لله وانا اليه راجعون » ، فقال له الناس : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » !! وهزه النداء الى

أعماقه ، فتزايل الى أغوار نفسه من استشعاره هول المسئولية ، ولم يستطع أن يظل واقفا ، فجلس على أرض المسجد ، وأدخل رأسه بين ركبتيه ، وبكى أحر بكاء !! فقال بعض بنى عبد الملك : « يبكى فرحا بالخلافة » .. ثم رفع رأسه ومسح عينيه ، وقال : « اللهم ارزقنى عقلا ينفعنى ، واجعل ما أصبر عليه أهم مما يزول عنى » .

ثم أرسل كتابا الى الحسن البصرى يسأله النصيحة والموعظة .
وصلى عمر على سليمان ، وشيعه الناس من قصره الى قبره ..

فلما فرغ عمر من جنازة سليمان ، دعا من مكانه بدواة وقرطاس .. فأصدر ثلاثة أوامر .. فالأمر الأول كان لمسلمة بن عبد الملك أن يعود من فوره بجيشه الذى يحاصر القسطنطينية . وكان الأمر الثانى بعزل أسامة التنوخى عن خراج مصر . أما الأمر الثالث فكان بعزل يزيد بن مسلم عن أفريقيا لأنه أصبح أمير سوء ، جبارا ، يعذب الرعية ، وينتهك الحرمات ، ويلقى الأبرياء فى السجون ، ويأخذ الناس بالشبهات !

● **شرف الحكم :**

بدأ عمر بن عبد العزيز حكمه بالاحتجاب عن الناس ثلاثا لا يدخل عليه أحد ، والأشراف والوجوه ببابه ، ينظرون ما يخرج عليهم منه ..
قضى عمر أيام احتجابه الثلاثة وحده يتعبد فى مصلاه بمنزله ، ويدعو الله أن يعينه ، ويقرأ القرآن الكريم ، ويتفكر ويتدبر .
ها هو ذا الآن أمير المؤمنين !!..

وما عرفت الأمة أميرا للمؤمنين قبل جده عمر بن الخطاب ، خليفة رسول الله !.. فلقد حاول جاهدا أن يأخذ الناس بالعدل ، رضى الله عنه .

والأمة حين تطلق لقب : أمير المؤمنين ، وتسكت عن الاسم ، فهى تعنى الامام على بن أبى طالب .. ولقد عانى ليسوى بين الناس ، كرم الله وجهه ..

وأمير المؤمنين الجديد ، عمر بن عبد العزيز ، يريد أن يتخذ القدوة من هذين الامامين العظيمين : فكلاهما واجه الأطماع التى اشرأبت فى عهده ، وعالج فى الرعية ما زين لها من حب الشهوات ، وهو بلاء فى الله نجا منه أبو بكر الخليفة الأول ، وعافاه على الخليفة الرابع .. رضى الله عنهم جميعا . ولكن عمر وعليا واجها الأطماع والشهوات بعزم شديد ، وبهيبة الشريعة ، وسلطان العدل والاحسان ، والرحمة[1] .

اعتكف عمر بن عبد العزيز على سيرة الخليفتين العظيمين عمر وعلى، يتعلم من أسلوبهما فى الحكم معنى شرف الحكم ، ويجعل منهما القدوة ، وفيهما الأسوة .. وهزه أن كلا من الامامين العظيمين يحمل فى عقله الأفكار نفسها ، وان اختلف بهما الزمان والمكان والأحوال .. كلاهما شق المنهج الذى يجب أن يتبعه كل امام يريد أن يحقق العدالة ، وأن يحافظ على جلال الشريعة ، وأن يصون مصالح الأمة ..

أخذ عمر بن عبد العزيز فى معتكفه يتفكر فيما تركه الامامان العظيمان من آثار ، من الحكم الغوالى ، فجعلها دستوره فى الحكم والحياة .. ومن هذه الحكم[2] .

« من استعمل رجلا لمودة أو قرابة لا يستعمله الا لذلك ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

« من استعمل فاجرا وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله » .

« اياكم والهدايا فانها من الرشا » .

« ليس من حلم أحب الى الله ولا أعم نفعا من حلم امام ورفقه ، وليس من جهل أبغض الى الله ولا أعم ضررا من جهل امام وخرقه » .

« والله ما من أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١١٥
(٢) **المرجع السابق** . ص ١١٦ ـ ١٢٣

من أحـد ، ووالله ما من المسلمين من أحـد الا وله فى هـذا المـال نصيب ... فالرجل وبلاؤه .. والرجل وحاجته » .

« انا والله ما وجدنا الى هـذا المـال سبيلا الا أن يؤخذ من حق فيوضع فى حـق ولا يمنع عن حق » .

« ليس الايمان بالتمنى ولكن بالحقائق .. وانما المهاجرون هـم الذين يهجرون السـيئات ومن يأتى بها » .

« تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تعلمون ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولا تكونوا جبابرة بالعلمـاء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

« يهدم الاسـلام زلة عالم ، وجـدال منـافق بالقرآن ، وأئمـة مضـلون » .

« ان أسـعد الرعاة من سعدت به رعيته ، وان أشقى الرعاة من شقيت به رعيته » .

« لا تضربوا الناس فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » .

« انما يرحم الله من عباده الرحماء » .

« ان مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

« من خلصت نيته فيما بينه وبين الله عز وجل ، كفـاه ما بينـه وبين الناس » .

« ان من ولى أمر المسلمين يجب عليه ما يجب على العبد لسيده فى النصيحة وأداء الأمانة » .

سـمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات غاشـا لرعيته لم يعرف ريح الجنـة » .

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

« من خاف الله لم يفعل ما يريد » .

« لا تمش مع الفاجر فيعلمك ، ولا تطلعه على سرك ، ولا تشاور فى أمرك الا الذين يخشون الله عز وجل » .

« ان أحب الناس لى من أهدى الى عيوبى » .

« العلم خير من المال : العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو (ينمو) على الانفاق » .

بهذه الكلمات المضيئة وأمثالها أشرقت نفس عمر بن عبد العزيز ، ولم يعد بعد فى طوفان الشعاع الطاهر يعرف كلمات عمر بن الخطاب من كلمات على بن أبى طالب ! فكلاهما ينساب من نبع النبوة القدسى . حيث الفيض الربانى يحيى أمل الانسان فى الخلاص لتزدهر جنته فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة !

وفكر فى الامامين العظيمين عمر وعلى : انهما ما حكما بأبهة الملك قط ، ولكن بورع الخلافة !.. وكلاهما كان يحيا حياة أدنى رجل من رعيته ، فى مسكنه ومطعمه ، وتحت يده ملك الدنيا .. ولربما تأخر أحدهما عن صلاة الجماعة لأن ثوبه الوحيد الذى غسله ، لم يكن قد جف بعد !..

فما بالك يا ابن عبد العزيز تلبس كل يوم حلتين من أثمن ما نسجت مصر ؟!

كان الواحد منهما يجب من الطعام ما خشن ، ومن الثياب ما قصر .. فما بالك يا ابن عبد العزيز تأكل أشهى الطعام ، وتسدل بردتك على كعبيك حتى لتمس الأرض ، وتستمتع بحياتك ؟!

اقتد يا ابن عبد العزيز بالامامين العظيمين : عمر بن الخطاب ، وعلى ابن أبى طالب ، رضى الله عنهما .

وبعد يا ابن عبد العزيز ؟!

وداعا للثياب الفاخرة ، وللمطايا الفارهة .. وداعا للملذات ، وللغنى المتسلط ، وللترف المختال ..

وداعا لزينة الله التى أحل لعباده ، وللطيبات من الرزق !
وداعا لكل ذلك حتى يتمتع بها الرعية قبل الراعى !!

وأمر عمر بجمع عطوره وأدوات زينته وكل ثيابه وركائبه ، وأمر ببيعها جميعا ، ووضع أثمانها فى بيت المـال !.. ثم أعتق جواريه ..

وكان قـد كتب الى كل من الحسن البصرى ومطرف بن عبد الله الزاهدين ، كتـابا بخط يده قال فيـه : « سلام عليكما ، فانى أحمد الله اليكما الذى لا اله الا هو ، وأسـأله أن يصلى على محمد عبـده ورسوله . أما بعد ، فانى أوصيكما بتقوى الله ، فان من يقولها كثير ، ومن يعمل بها قليـل ، فاذا أتاكما كتابى فعظانى ولا تزكيانى والسلام ».

فكتب اليه الحسن البصرى : « سلام عليك ، فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو . أما بعـد .. فان الدار مخوفة ، هبط اليها آدم عليـه السلام عقوبة ! تهين من أكرمها ، وتكرم من أهانها ، وتفقر من جمع لها ! لها فى كل يوم قتيل ، فكن يا أمير المؤمنين كالمداوى لجرحه ، واصبر على شـدة الدواء لمـا تخاف من طول البلاء »[1] .

وكتب اليه مطرف بن عبد الله : « سـلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو ، أما بعـد . فليكن استئناسـك بالله ، وانقطاعك اليـه ، فان قوما أنسـوا بالله وانقطعوا اليه فكانوا بالله فى وحـدتهم أشـد استئناسا منهم بالناس فى كثرة عـددهم ، وأماتوا من الدنيـا ما خافوا أن يميت قلوبهم ، وتركوا منها ما علموا أنه سـيتركهم ، فأصبحوا لمـا سـالم الناس منها أعـداء . جعلنا الله واياك منهم ، فانهم قد أصبحوا بها قليلا والسلام ».

ظل عمر بن عبد العزيز فى وحـدته يتأمل هذه المواعظ ، فيما وعظه من زهـد عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وسيرتهما فى الرعية ..

---

(١) **المرجع السـابق** . ص ١٢٥

ثم أخـذ يتأمل فى سيرة أسلافه من الملوك بعـد ما انقضى عصر الخلفاء الأربعة الراشـدين ..

كم من المظالم وقعت !.. كم من أمراء المؤمنين أترفوا فى أموال الرعيـة ، حتى ليمرض بعضهم من التخمة حتى الموت ، وفى الرعيـة من يهلك من الجـوع !

كم تعالت صرخات المعذبين فى غيابات السجون !
وكم ينتظرك من أعباء !

لا نجاة لك الا أن ترفع المظالم ، وتدرأ المفاسد ، وتحقق مصالح الرعيـة كما أرادتها الشريعة التى أصبحت أنت منـذ اليوم أمينـا على أحكامها !..

لا نجاة لك من غضب الله يا ابن عبد العزيز الا اذا جعلت سيرتك نورا يضىء غاشية الظلمـات الداجية ، التى لم يعد يقوى على تبديدها ضـوء بعد !.. لا خلاص لك الا اذا خلصت هذا العصر من سـطوة الفجار ، وتحكم السفلة والندمان والجوارى !!

وارتفع نشيجه وهو فى مصـلاه يتأمل ويتفكر .. ودخلت عليه زوجته الحبيبة فاطمة ، فوجدته يرتجف من حدة النشيج ، ودموعه تجرى على لحيته .. قالت له : « ما بك يا أمير المؤمنين » ؟!

ولم يكد يسـمع كلمة « أمير المؤمنين » .. حتى ارتجف من هول الاحساس بالمسـئولية ، فاشتد بكاؤه .. فدنت منه زوجته تواسـيه وتخفف عنه ، فلمـا كفكفت دموعه ، قال لها : « يا فاطمة ، انى تقلدت أمر أمة محمـد صلى الله عليـه وسلم ، فتفكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضـائع ، والعـارى ، والمظلوم ، والمقهـور ، والغريب ، والأسـير ، والشيخ الكبير ، وذى العيال الكثير والمـال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض ، فعلمت أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن

خصمى دونهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت ألا تثبت حجتى عند الخصومة ، فرحمت نفسى ، فبكيت »[1] !

كانت فاطمة تجمع الى روعة الجمال سداد العقل . فأشارت عليه أن يرسل الى عماله على الأمصار بنصائحه ، ويحملهم أمانة من يحكمونهم من بشر ، وما يحكمون فيه من أموال ، وينذر بعقاب وعزل من يخالف دستوره فى الحكم ، ونهجه فى الرعية .

فكتب الى عماله جميعا رسالة واحدة جاء فيها[2] :

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين الى العمال : أما بعد ، فان الله بعث محمدا (بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وان دين الله الذى بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم هو كتابه الذى أنزل عليه أن يطاع الله فيه ، ويتبع أمره ، ويجتنب ما نهى عنه ، وتقام حدوده ، ويعمل بفرائضه ، ويحل حلاله ويحرم حرامه ، ويعترف بحقه ، ويحكم بما أنزل فيه ، فمن اتبع هدى الله اهتدى ، ومن صد عنه (فقد ضل سواء السبيل) ، وان من طاعة الله التى أنزل فيها كتابه : أن يدعو الناس الى الاسلام كافة ، وأن يفتح لأهل الاسلام باب الهجرة ، وأن توضع الصدقات والأخماس على قضاء الله وفرائضه » .

« ان هذا الأمر الذى ولانى الله لو كنت انما أصبحت ورغبتى فيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج وأموال ، لكنت قد بلغ الله بى من ذلك قبل ما ولانى أفضل ما بلغ بعباده » .

« ولكن أصبحت بعد ما ولانى خائفا ، أعلم أن فيه أمرا عظيما ، وحسابا شديدا ، ومسألة غليظة عند مجاهدة الخصوم بين يدى الله ، الا ما عافى الله تعالى عليه ورحم » .

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١٢٧

(٢) **المرجع السابق** . ص ١٢٨ ـ ١٣١

« وانى آمرك فيما وليتك من عمل ، وأفضيت اليك من أمرى ، بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، واتباع ما أمر الله ، واجتناب ما نهى عنه ، وقلة الالتفات الى شىء خالف ذلك ليكون الذى آمرك به فى سيرتك والنظر فى نفسك وفى عملك ، وما تفضى به الى ربك ، وما تعمل به فيما بينك وبين الرعية قبلك (أى عندك) ، وأنت تعلم علما يقينا أنه ليست نجاة الا أن تنزل بذلك المنزل من طاعة الله ، ودع أن ترصد شيئا ليوم ترجوه غدا من الله وتخاف منه ، فانك قد رأيت عبرا فى نفسك ، وعبرا مثلها وعظ مثلك » .

« ان الله بعث محمدا للناس كافة ، وقال : ﴿ **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾ ، وقال : ﴿ **يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا** ﴾ . وقال الله تبارك وتعالى فيما يأمر به المؤمنين من شأن المشركين : ﴿ **فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين** ﴾ . فهذا قضاؤه وحكمه ، فاتباع الله طاعة ، وتركه معصية . فادع الى الاسلام ، فان الله تعالى يقول : ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين** ﴾ .

« فمن أسلم من نصرانى أو يهودى أو مجوسى من أهل الجزية اليوم فخالط المسلمين فى دارهم ، وفارق داره التى كان بها ، فان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم . وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه » .

« فأما من كان اليوم محاربا فليدع الى الاسلام قبل أن يقاتل ، فان أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وله ما أسلم عليه من أهل ومال » .

« وان كان من أهل الكتاب فأعطى الجزية وأمسك بدينه ، فانا نقبل ذلك منه » .

« وأما الهجرة فانا نفتحها لمن هاجر من أعرابى فباع ماشيته ،

وانتقل من دار أعرابيته الى دار الهجرة والى قتال عدونا .. فمن فعل ذلك فله آسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم » .

« وان الله نعت المؤمنين عند ذكره الفيء ، فجعله للفقراء والمهاجرين ﴿ **والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم** ﴾ والذين جاءوا من بعدهم ، ثم قال : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم** ﴾ » .

« وقد كان المهاجرون يجاهدون على غير عطاء ولا رزق يجرى عليهم ، فيوسع الله عليهم ، ويعظم الفتح لهم ولمن تأسى بهم ، وعمل بصالح سنتهم ممن يحبون من اخوانهم ، ليوجبن الله له الأجر فى الآخرة ، وليعطين له الفتح فى الدنيا » .

« وأما الصدقات ، فإن الله تبارك وتعالى فرضها وسمى أهلها حين طعن فيها الناس ، وبلغوا فيها تهمة نبيهم فقال ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان اعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون** ﴾ ، فقال الله تبارك وتعالى عند ذلك : ﴿ **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم** ﴾ » .

« فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة الأموال : الحرث والمواشى والذهب والورق » .

« فتؤخذ الصدقات كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض ، لا يظلمون ولا يتعدى عليهم ، ولا يحابى بها قريب ولا يمنعها أهلها » .

« وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة (الخلفاء) اختلفوا فى موضعه ، فطعن فى ذلك طاعن من الناس وأكثر فيه ، ووضع مواضع شتى » .

« فنظرنا فاذا هو على سهام الفيء فى كتاب الله ، لم يخالف واحدة

من الآيتين الأخرى ، فاذا عمر بن الخطاب رحمه الله قد قضى فى الفىء قضــاء قدر رضى به المســلمون ، ففرض للناس أعطية وأرزاقا جارية لهم ، ورأى أن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك ، ورأى أن فيــه لليتيم والمســكين وابن الســبيل » .

« فرأى أن يلحق الخمس بالفىء ، وأن يوضع مواضعه التى سمى الله وفرض ، ولم يفعل ذلك الا ليتنزه منه ، وخيفة التوهم فيه ! فاقتدوا بامام عادل فان الآيتين متفقتان : آية الفىء وآية الخمس ، فان الله قال :

﴿ ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرســول ولذى القربى واليتامى والمساكن وابن السبيل ﴾ ، وكذلك فرض الله الخمس ، فنرى أن يجمعا جميعا ، فيجعلا فيئا للمسلمين ولا يستأثر عليهم ، ولا يكون

﴿ دولة بين المســلمين منكم ﴾ »

« ثم ان المكيال والميزان نرى فيهما أمورا علم من يأتيها أنها ظلم .. فنرى أن تمام مكيال الأرض وميزانها أن يكون واحــدا فى جميــع الأرض كلها » .

« ونرى أن لا يتجر امام ، ولا يحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هــو عليه ، فان الأمير متى يتجر يســتأثر ويصب أمورا فيها عنت وان حرص على أن لا يفعل » .

« وان استطعت أن تكون فى العدل والاصلاح والاحسان بمنزلة من كان قبلك فى الظلم والفجور والعدوان ، فافعل ، ولا حول ولا قــوة الا بالله » .

« ونرى أن توضع السخرة عن أهل الأرض ، فان غايتها أمور يدخل فيها الظلم » .

« ونرى أن تردوا المظالم والغصوب الى أهلها » .

ونرى أن ترد المزارع لما جعلت له ، فانما جعلت لأرزاق المسلمين عامة ، فان أمر العامة هو أعظم للنفع ، وأعظم للبركة » .

وبعد أن فرغ عمر من كتابة هذه الرسائل الى عماله ، قرأها على امرأته ، فأبدت اعجابها بما تضمنته من أصول للحكم ، ودعت له بالتوفيق .. وأخبرها أنه سينظر فى كل ما يملكه هو ، وكل ما يملكه الأمراء وأعيان الناس ، فما كان مغتصبا رده الى أهله ، ومن لم يعرف له أصحابا رده الى بيت المال ..

وسيبدأ بنفسه ، فيرد الاقطاعات والأراضى الشاسعة والأموال الطائلة التى يملكها فى أقطار الدولة ، الى بيت المال ، وسيحتفظ بما يعرف أنه حق خالص له ، لم يدخله غصب الآباء والأجداد ، ولا شبهة غصب .

فهشت له فاطمة ، وامتدحت رأيه . فقال لها : « ان أردتنى يا فاطمة فردى ما معك من مال وحلى وجواهر الى بيت المال ، فانه للمسلمين ، وانى لا أجتمع أنا وهو فى بيت واحد » . فردته جميعا ..

ومن عجب أنه لما تولى أخوها يزيد بعد وفاة زوجها عمر ، رد عليها جواهرها فلم تأخذها ، وقالت : « ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا » ! فوزعها على نسائه وجواريه !!

وخرج عمر من اعتزاله الذى استمر ثلاثة أيام ، أميرا للمؤمنين ، وعلى أبوابه أمواج من الزحام .. فيهم أمراء بنى أمية ، ووجوه قريش ، والفقهاء ، والعلماء ، والشعراء . لم ينقشعوا عن بابه منذ أغلقه على نفسه دونهم ، بل ظلوا يغدون ويروحون فى الانتظار !!

ونظروا الى قوامه الطويل النحيل ، ووجهه الأبيض الصبيح ، فوجدوا وجهه الريان يغشاه الشحوب ، وقد احمرت عيناه .. ولم

يعرفوا منه ريح المسك الذى نعود أن يعلن عن مقدمه .. ونظروا اليه مليا ، وكأنهم أنكروه !..

وكان أول ما أعلنه على الناس تنازله عن كثير من أملاكه .. ثم انه أمر الناس أن يجتمعوا فى المسجد ، فلما احتشدوا أعلن أنه يمنع خطباء المساجد فى كل أنحاء الدولة من سب على وفاطمة ، فى نهاية خطبة الجمعة ، وأمرهم أن يضعوا مكان السب آخر الخطبه الآية الكريمة : **﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾** .

ثم قام فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، انه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد عليه الصلاة والسلام . وانى لست بقاض ولكنى منفذ ، وانى لست بمبدع ولكنى متبع » .

« ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم ، الا أن الامام الظالم هو العاصى » .

« ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق عز وجل » .

« وانى لست بخير من أحد منكم ، ولكن أثقلكم حملا » .

وأدرك أعيان بنى أمية ووجوه قريش أن عمر لن يكون رجلهم !.. فمضوا يتخافتون بالطعن عليه .

فنادى بسواد الناس أن يجتمعوا فى المسجد ، وخلع نفسه .

ولكنهم بايعوه جميعا !!

فقال : « يا معشر الناس ان تقوموا نقم ، وان تقعدوا نقعد ، فانما يقوم الناس لرب العالمين . ان الله فرض فرائض وسن سننا ، من أخذ بها لحق ، ومن تركها محق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس : يوصل الينا حاجة من لا تصل الينا حاجته ، ويدلنا من العدل على ما نهتدى اليه ، ويكون عونا لنا على الحق ، ويؤدى الأمانة الينا

والى الناس ، ولا يغتب عندنا أحدا ، ومن لم يفعل ذلك خرج من صحبتنا والدخول علينا » .

كرهه وأنكره وجوه بنى أمية ، وأهل الأطماع وأصحاب الضياع ..

واستبشر به الفقراء ، وسواد الناس ، وأهل الورع من العلماء والفقهاء ، والذين يعانون حرارة الأشواق الى العدل والاحسان والحرية واحترام الانسان .

لقد أدرك ، وهو أمير المؤمنين لم يبلغ الأربعين بعد ، أن الزهد القادر فيما يثير الزهو الباطل هو الحكمة .

وان الارتفاع عن الشهوات التى تسفه بالقلوب والعقول وتستخف الصبوات هو الرشاد .

وان المساواة بين الحاكم والرعية فيما تقدمه الحياة من معطيات ، وفى كل أمور العيش هو العدل ، وأن تقوى القلوب وصلاح السرائر وطهارة الضمائر هى الاحسان .

وأدرك أنه من هذا كله يتأتى شرف الحاكم ، وشرف الحكم ، والقدوة الحسنة ، وسعادة المحكومين ، ويصبح ما بين الراعى والرعية عقدا مقدما نورانيا ، ليس للشيطان فيه نصيب ، يصونه الجميع فى حبات القلوب[1] .

لما باع عمر كل ما كان يملك ، ووضع أثمانها فى بيت المال ، لم يبق له الا دابة يركبها ، وغلام يساعده ، وجارية تغسل وتطحن وتقوم بمساعدة زوجته فى أعمال المنزل ، وجعل لنفسه من بيت المال درهمين يوزن له بهما طعامه ، غلا السعر أو ربص !

وقطع عن بنى أمية ما لا يستحقون من أموال طائلة ، تعودوا أن

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١٣٤ ـ ١٣٥

يحصلوا عليها من بيت مال المسلمين ، لهم ولأتباعهم ، ورد ضياعهم الى بيت المال .. يعمل فيها من يعملون بأجر ، ويدفعون عنها خراجها الى بيت المال .

فقد رد عمر ضياع بنى أمية الى الخراج وأبطل قطائعهم .. فضجوا من ذلك واجتمعوا اليه وقالوا له : أفقرت بنى أبيك فيما ترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كان منهم ، واشتغل أنت وشأنك واعمل بما رأيت . قال لهم : هذا رأيكم ؟ قالوا : نعم . قال : « ولكنى لا أرى ذلك .. والله لوددت أن لا تبقى فى الأرض مظلمة الا رددتها » ..

كان عمر حريصا على أن يقيم العدل ، وعلى اصلاح أحوال الرعية ، ولعله من أجل ذلك أمر مسلمة بن عبد الملك بأن ينسحب بجيشه من على أبواب القسطنطينية .. فقد رأى أن استقرار السلام هو وحده الذى سيمكنه من الاصلاح الذى يرجوه ، على أساس من العدل والشورى .. ولكن عماله فى الأندلس انطلقوا يواصلون الفتوحات ، فعبروا جبال البرانس ، وفتحوا بعض بلاد جنوب فرنسا .. ثم انه استرضى المسيحيين ، وعوضهم عن الكنيسة التى اغتصبها الوليد وضمها الى جامع دمشق .. واسترضى غير المسلمين جميعا ، وأصدر أوامره الصارمة الى عماله فى كل الأمصار : « لا تهدموا كنيسة ، ولا تهدموا معبدا ، ولا بيت نار تصالحتم عليه » .. ثم انه خفف الجزية عن غير المسلمين جميعا .

وعاد الى أصول الحكم التى وضعها الاسلام ، فجعل لجميع من يعيش فى أرض الاسلام حقوقا وواجبات متساوية .. شأنهم شأن المسلمين : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

ونظر الى الموالى وهم أهل البلاد المفتوحة الذين أسلموا ، فألغى امتيازات العرب عليهم ، وساواهم بالعرب فى كل أمورهم ، فهدأ

السخط الذى قد بدأ يشتمل على سياسة الأمويين فى التفرقة العنصرية بين العرب وغير العرب • وعاد عمر الى القاعدة الشرعية التى التزمها الخلفاء الراشدون الأربعة ، والتى تعلموها من الكتاب والسنة : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ، « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » •

ثم عاد عمر بن عبد العزيز فى ادارته للأرض الى سياسة جده عمر بن الخطاب •• وكان أسلافه من حكام بنى أمية قد أهدروا هذه السياسة ، وانتهكوا ما كفلته للرعية من حقوق وواجبات وحريات •• ومن أجل ذلك عرف ذلك العهد بعصر الغنى الفاحش ، الى جوار الفقر المدقع !

وفى الحق أن عمر بن عبد العزيز اذ عاد الى سياسة عمر بن الخطاب فى أراضى البلاد المفتوحة ، وهى بلاد الحضارات العريقة بها أخصب الأرض ، فانما اعتمد على أن ما صنعه عمر بن الخطاب لم يكن اجتهادا خاصا به ، ولكنه اجماع الصحابة كلهم •• فقد اختلف بعض الصحابة مع عمر حول مصير هذه الأراضى المفتوحة ، ورأوا أنها حق لهم بعد أن حازوها بجهادهم ، فاستشار عمر الصحابة فى أن يبقى الأرض فى يد فلاحيها ، ويأخذ عنها خراجا ، ليعمر بيت المال ، ولكيلا يستأثر بها قوم دون قوم • فلم يؤيده الا نفر قليل منهم عثمان وعلى •• فجمع الناس جميعا ، وشاورهم فى الأمر ، فانتخبوا منهم جماعة يمثلونهم، ويقررون باسمهم • فلما اجتمعوا وافقوا عمر ، فعاد عمر وجمع الناس جميعا ، وطرح عليهم رأى الجماعة المنتخبة ، فوافقوا كلهم حتى الذين عارضوه من قبل فى توزيع هذه الأراضى •

فالسياسة التى عاد اليها عمر بن عبد العزيز فى شئون المال والأرض هى اذن سياسة قد أجمع عليها الناس جميعا ، فى مثال فريد للشورى •• ولكن قومه من بنى أمية غاضبوه ، واذ أنسوا منه

الاصرار على سياسته ، اجتمعوا الى كبيرهم حينذاك عمر بن الوليد ، فسألوه أن يكتب الى عمر بن عبد العزيز فيؤنبه على ما صنعه بهم !.. ولم يعبأ عمر بذلك ، ولم يتراجع ..

لم يستطع عمر أن يسير فى الناس بسيرة جده ابن الخطاب كما أراد ، فقد كان رجاله غير رجال عمر بن الخطاب .. ولكنه ظل يتخذ من مبادىء عمر وعلى هاديا له فى سيرته ، يطبق منهما ما يطيق ، وما يسمح به العصر !

قال فى أسف لأنه لم يستطع أن يسير سيرة جده : « انى لأجمع (أقرر) أن أخرج للمسلمين أمرا من العدل ، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا ، فان نفرت القلوب من هذا سكنت الى هذا » .

كان عمر قد كتب الى الحسن البصرى أن يكتب اليه بصفة الامام العادل ، فأرسل اليه كتابا ، فلما قرأه استعبر وبكى ، ثم أرسله الى جميع الأمصار ليهتدى به الأمراء والحكام .

كتب الحسن البصرى[1] :

« اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله جعل الامام العادل ، قوام كل مائل، وقصد كل حائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة (انصاف) كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف » .

« والامام العادل يا أمير المؤمنين ، كالراعى الشفيق على ابله الرفيق بها الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مراعى التهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنها من أذى الحر والقر » .

« والامام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحانى على ولده ، يسعى

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١٨٧ – ١٨٩

لهم صغاراً ، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته » .

« والامام العدل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته » .

« والامام العادل يا أمير المؤمنين ، وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم » .

« والامام العادل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده » .

« والامام العادل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وعباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم » .

« فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله » .

« واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا أتاهن من يليها » ؟!

« واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ، ولما بعده من الفزع الأكبر » .

« واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا ، فتزود له بما يصحبك ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه** ﴾ »

« واذكر يا أمير المؤمنين ﴿ **اذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور** ﴾ ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها » .

« فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون فى مؤمن الا (عهدا) ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه يؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم باذهاب طيباتك فى آخرتك ، ولكن انظر الى قدرتك غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم » .

● **رحيل الامام العادل :**

ثقلت الدنيا على الامام العادل ــ عمر بن عبد العزيز ــ كما ثقل هو عليها ، فناءت تحت ورعه الصارم وعدله الحازم ..

لقد عقد عزمه على أن يحمل مسئولية الحكم بضمير « عمر بن الخطاب » فى زمن مختلف جدا ، بل مناقض جدا لزمن جده « عمر ابن الخطاب » !..

كان « ابن الخطاب » يحيا فى امتداد عصر الوحى والنبوة ، ومعه أعوان كثيرة على الحق والعدل .. أما « ابن عبد العزيز » ، فيحيا فى ميراث ملك عضوض وسنوات ترف وانحلال وضياع ، وليس معه على الحق أعوان ، الا قلة نادرة تاهت فى الزحام !!..

ولقد نجح فيما عقد عليه عزمه نجاحا منقطع النظير .. بيد أن هذا النجاح الخارق تم على حساب كل ذرة من عافيته وحياته ..

وحين نستعرض « برنامج » يوم من أيام حياته ، لا يأخذنا العجب لقصر مدة خلافته وعمره . بل يأخذنا العجب لأنه بكل هذا الجهد

المميت ، استطاع جسمه أن يتحمل ويقاوم ويستمر فى الحياة ـ على هذه الصورة ـ عامين وخمسة أشهر !!..

ان الجسد الذى كان ـ قبل الخلافة ـ يحيا ، وتترعرع خلاياه على أهنأ ما فى الدنيا من غذاء ونعيم ، حرم فجأة لحظة استخلاف صاحبه ، لا من هذا النعيم فحسب ، بل ومن المقومات الأساسية واللازمة لحفظ مجرد الحياة ..

ثم هو مع هذا ، لا يبذل جهدا متكافئا مع فاقة صحته ، وضمور جسده .. بل يبذل جهد رجل يرى نفسه مسئولا مسئولية مباشرة وكاملة عن كل فرد من مواطنى دولته العريضة المترامية .

ثم هو لا يعيش المشكلات الطاحنة للأمة والدولة وحسب ، بل يعيش فى استغراق رهيب مشكلته مع نفسه ، ومع الموت ، ومع المصير غدا بين يدى العلى الكبير !!..

فهو ـ كما قال واصفوه ـ يرتجف دوما ويبكى ، وكأن الثار لم تخلق الا له !!..

لقد عاش فترة خلافته ـ تسعة وعشرين شهرا ـ وكأنها تسعة وعشرون قرنا !..

وفى كل دقيقة ، كانت روحه وأعصابه وعافيته تعطى جهد عام ..

ان التغيير الهائل الذى أراده للدولة وللأمة ، كان يتطلب لو سارت ريحه رخاء جيلا أو جيلين ، فأبى الا اتمامه فى الأيام الباقية له على الأرض ، وبين الناس ..

انه يريد أن ينقل الى دنيا الترف والفساد ، عصر الوحى والنبوة .. ثم هو لا يريد أن ينقله الى نظام الدولة والمجتمع وحسب ، بل الى أفئدة الناس وضمائرهم وسلوكهم[1] !!..

---

(١) خالد محمد خالد : معجزة الاسلام .. عمر بن عبد العزيز . ص ١٨٣ ـ ١٨٥

من هذه الصورة السريعة ، نلمح الأعباء الخارقة المهلكة التي حملتها روحه وجسده في تفان رهباني ، واستبسال عظيم ..

وبينما الفدائي العظيم ماض في طريقه ، اذا به يفقد أحب الناس اليه ، وأحناهم عليه ، وأوفاهم له ، وأبرهم به .. أخوه « سهل » ، وابنه « عبد الملك » ، ومولاه « مزاحم » ..

رحلوا عنه تباعا .. وتركوا مكانهم حوله شاغرا ، الا من ذكرى تثير الألم والشجن .. انه لم يفقد فيهم الأخ ، والابن ، والرفيق .. بل فقد فيهم أعوانه على الحق ، والنماذج الصحيحة لفضائل عصر الوحي الذي شغفه حبا واجلالا ..

ولقد راح يحس أن ذهابهم ، ارهاص بقرب ذهابه .. وأن رحيلهم ، أذان بقرب رحيله ..

أفلا يهدأ اذن ويستريح ؟.. لا ، بل راح يضاعف الجهد ، لينجز العمل قبل أن يرفع مراسيه ويبحر !..

راح يتفوق على ما عهد البشر من طاقة ومقدرة ، وقد تملكته الرغبة في استشهاد نبيل !!..

لم يعد يؤرقه ولا يعنيه ، سوى أن يجيء حينه ، ويده القوية الأمينة ممسكة براية الله عزيزة ظافرة ، يقول لربه حين يلقاه :

« رب ، هذه رايتك لم أسلمها .. ووديعتك ، لم أخنها » !!..

وبينما هو في عنائه ، وعظمة جهاده وبلائه ، كانت هناك مؤامرة تحاك ، وجريمة تدبر ..

فبينما مرت الشهور التسعة والعشرون على الجموع كأنها حلم سعيد .. كانت كل دقيقة منها كابوسا خانقا مرهقا للأمراء والسادة ، وذوي الامتيازات الظالمة التي داستها أقدام موكب الحق الذي قاده أبو الشعب ، وأمير المؤمنين !.. هنالك ائتمروا به ..

وكما تحدث بعض كتب التاريخ ، دسوا له السم فى الطعام !!..

على أن روحه بقوتها لم تخذ له أبدا .. فراح يسابق المنية فى انجاز ما يستطيع انجازه ويقول : « ان لله شرائع وسننا ، ان أعش أعلمكموها وأحملكم عليها ..

« وان أمت ، فما أنا على صحبتكم بحريص »[1] !!..

أجل .. انه لا يربطه بالحياة الدنيا الا الرسالة التى حملها فى عنفوان وتقى .. وأعطاها حياته فى اخلاص وتبتل !!..

لكن الآخرة ، سرعان ما ترسل ارهاصها وبشائرها فى صورة شوق عارم يأخذ الى الله قلبه وروحه .

لقد تأججت أشواقه الى لقاء الله ، وتركزت فى قرب هذا اللقاء كل أمنياته وضراعاته . وصار دعاؤه المفضل :

« اللهم اقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط » .

واشتد به المرض .. وتحولت الملايين من أبناء أمته الى أطفال ، يوشك اليتم أن يحيق بهم حين يفقدون أباهم ..

الجياع ، الذين شبعوا .. والعراة الذين اكتسوا .. والخائفون ، الذين أمنوا .. والمستضعفون ، الذين سادوا .. واليتامى ، الذين وجدوا فيه أباهم .. والأيامى ، اللائى وجدن فيه عائلهن .. والضائعون ، الذين وجدوا فيه ملاذهم .. والتائهون الذين وجدوا فيه دليلهم ..

كل هؤلاء ، وأولئك .. كل الناس فى شعبه وأمته سحقتهم أنباء مرضه الدائم .. بل خارج أمته ، فى الدنيا التى حوله ، والتى كانت سيرته تفوح فيها كالعبير ، تولاها الجزع والذهول ..

---

(١) **المرجع السابق** . ص ١٨٧

حتى امبراطور الروم ، العدو اللدود لدولة العرب والاسلام ، يرسل كبير أساقفته ، وكان بالطب خبيرا ، ويرجوه أن يصنع المستحيل لانقاذ حياة الجار الطيب والخليفة العادل ، والقديس الجليل ..

لكن القديس الجليل رفض كل علاج وكل طب وكل دواء ، وراح مع أشواقه ، ينتظر آن لحظة النداء ..

هاهو ذا راقد فى داره المتواضعة ، فوق حصيره المعهود .. ويدخل عليه ابن عمه « مسلمة بن عبد الملك » ، فيقول له :

« يا أمير المؤمنين ، ألا توصى لأولادك ، فانهم كثيرون وقد أفقرتهم ، ولم تترك لهم شيئا » ؟!!..

ويجيبه عمر : « وهل أملك شيئا أوصى لهم به ؟ أم تأمرنى أن أعطيهم من مال المسلمين ؟ والله لا أعطيهم حق أحد .. وهم بين حالين : اما أن يكونوا صالحين ، والله يتولاهم .. واما غير صالحين ، فلا أدع لهم ما يستعينون به على معصية الله » ؟!..

وأمره أن يدعو أولاده ، فجاءوا مسرعين .. اثنى عشر ولدا وبنتا ، شعثا غبرا ، قد زايلت جسومهم الشاحبة نضرة النعيم !!

وجلسوا يحيطون به ، وراح يعانقهم بنظراته الحانية الآسية ، ويتحسس بيمينه ثيابهم البالية .. ويغالب دموعه ، فتغلبه ، فيواريها وراء كلماته التى راح يودع بها أبناءه وأحباءه ..

« يا بنى .. ان أباكم خير بين أمرين .. أن تستغنوا ، ويدخل النار .. أو تفتقروا ، ويدخل الجنة ..

فاختار الجنة .. وآثر أن يترككم لله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » ..

ثم ابتسم لأبنائه ، ولأمهم العظيمة وزوجته الوفية ، وأذن لهم بالانصراف .

وسمعه الذين وقفوا خارج حجرته يردد الآية الكريمة :

﴿ تلك الدار الآخرة ، نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين ﴾ ..

وجاء مستشاره العظيم وصديقه الحميم « رجاء بن حيوة » يسعى.. وألقى بنفسه الى جواره وهمس فى سمعه : « كيف نجدك ، يا أمير المؤمنين ؟..

لكن أمير المؤمنين يسترسل فى تلاوة الآية الجليلة الكريمة :

﴿ .. لا يريدون علوا فى الأرض ، ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين ﴾ ..

وفجأة .. مال رأسه الذى طالما أثقلته هموم أمته الى وراء ..

مال ، ليستقر فوق وسادة ، حشوها ليف !!..

وأغمضت عيناه اللتان لم تغمضا قط عن حق لله .. ولا عن حق للناس ..

وعاد المسافر الى وطنه .. وآب الى داره ..

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ..

وحسن أولئك رفيقا !!

* * *